فتنة

فتنة

رواية
ممدوح عبد الستار
الطبعة الأولى : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ٢٥١٣٢ / ٢٠١٩
ISBN 978-977-6739-14-7
١٨٢ ص ، ٢٠ سم

الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع
{ جميع الحقوق محفوظة © }
التوزيع لجميع أنحاء العالم

الإسكندرية
ج ٠ م ٠ ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

فتنة

ممدوح عبد الستار

إهداء

إلى كل من غابوا عنا، وما زلنا نحبهم!

وإلى زهراتي الصغيرة، وبهجة روحي، وبسمة حياتي الباقية – أولادي – أحمد، وهاجر.

وإلى زوجتي، وتوأمي.

إليكم، وإليكم فقط!

المثقل بأحلام ناقصة

ممدوح عبد الستار

١

الدم الحار، والفعل الحار

يقول الراوي: الولد الأعور يتعقب "حامد"، وإن أصحابه يأتمرون بأمره.

تقول الراوية: "حامد" هو الذي فقأ عين الولد الغلبان، حينما ركل زلطة كبيرة، فصفّتْ العين اليمنى.

ويقول الراوي: أبو الولد الأعور لم يستطع فقأ عين "حامد"، ولم يستطع إثبات أنه حتى السبب، فاحتفظ بتلك الزلطة المكسوة بدم العين.

وتقول الراوية: ومن يومها؛ والولد الأعور يلمّ الحصى المتلون باللون الأحمر.

ويقول الرواة: ترك الأب وصية واجبة التنفيذ للولد الأعور، وأمره بتربية كلب ابن كلب من فصيلة نادرة لوقت اللزوم.

وأجزم الجميع من يومها بأسرار صغيرة، وضعوها في قلوبهم المُغلقة.

❊ ❊ ❊

رمى"فتوح" شريط الدواء في وجه"زكية" طالبًا غيّره، نَظَرته"زكية" – مرغمة – نظرة طويلة، لم تقو روحه على نظرتها الوقحة، واستكان رأسه على جسده، لم تتركه "زكية" لحاله، وحاولتْ أن تُقنعه بطريقتها الوحيدة التي تعودتْ عليها، ومسكتْ كُمّ جلبابه المُتسخ، وأخرجتْ جيب سيالتها – المخروم – الدمور، وأجبرته على النظر، بعزم رغبته، زعق "فتوح" طالبًا شريط الدواء، وخبط الأرض بقدميه، ورمى الأشياء التي تطولها يده.

الآذان المتلصصة ترنو ناحية الدار المُقفلة على أصحابها، أحسّتْ"زكية" بأقدامهم؛ فانحنتْ بكل

عزمها تقفل حنكها الواسع.

بينما "حامد" لا يرد على تحية أحد، وهو يركل الحصى، تبتهج نفسه، وهو يسمع ارتطام الحصى الصغير ببعضه مع كل خطوة، في الفترة الأخيرة؛ تعوّد بعض الصغار السير وراءه، ينتشلون الحصى الملون بدمه، فقد كان حذاؤه مفتوقًا.

كان "حامد" دائم الخوف – فقط – من الولد الأعور وكلبه الذي يلازمه، هذا سرّه الذي لا يعرفه أحد، ولمّا يتخيل الولد الأعور وكلبه، يرتعش، ويمضي عائدًا للدار المُقفلة على أصحابها، ويتلفتْ باستمرار عسى أن يلمح أحدًا، ويراهن "حامد" بين إحساسه ورؤية عينيه، المرّة الوحيدة التي رأى فيها الأعور – وهو يتخطى الخرابة البعيدة التي يزورها يوميًا وقت الغروب – حينما تخطى كلب ابن

كلب حدود اللياقة، وهبش لحم المؤخرة، جرى "حامد" وراء الكلب لمّا لمس بأصابعه قطعة من لحمه تتدلى. الكلب والولد الأعور وقفا "لحامد"، نظر "حامد" إلى عين الولد العوراء، وركل الحصى الذي أمامه بقوة، ولم يفعل أكثر من ذلك، ومن يومها، وهو يتلفتْ يمنة ويسرة، عسى أن يرى الولد الأعور مرّة أخرى.

أزاحتْ "زكية" ما تبقى من بشاشة وجهها الرائق حينما أزاحتْ مزلاج الباب، خشّ "حامد" بسرعة، وتسمّر أمام "فتوح"، انزوتْ "زكية" في ركن تضع يدها على قلبها، انفرجتْ من بين أسنان "فتوح" ضحكة صافية حينما لمح بداية ابتسامة على وشك أن تأخذ طريقها إلى وجه "حامد"، عَدّل "فتوح" من نظراته، وعزف عن "حامد" بفرك أصابعه، وفي مكانه رقد، وتستر بالسخونة، والهلوسة، وارتجف الجسد المكرمش، ملتحفًا بجلبابه الذي تجاوز عمره الافتراضي، وقابضًا جمرات من أشياء مستورة داخل الصدر المُغلق، شيء ما يجذبه إلى حيث هو، قابع لا يحرّك ساكنًا. نظر "حامد" إليه بإمعان: عينيه، طوله، عرضه، وتقاطيع وجهه، وسحنته القمحية.

"زكية" تنظر "حامد" مليًّا، وتعضّ على شفتيها، فرحة، وحزينة في آن واحد، بعدما انزوى "حامد" –بعد نظرته المتأملة – إلى نفسه المفعمة بأشياء كثيرة، ومشاعر تجاوزتْ كل حدّ، كانت شفتاه تعلنان بشكل متقطع بعض تفاصيل نفسه: {لن أندم كثيرًا حين أفقدك، وربما أُمارس حياتي بشكل تلقائي أُحسد عليه، وربما

يُضحكني صديق، أو أضحك من تلقاء نفسي، وربما أغتم، صبرًا حتى تحمل سيفك الخشبي، وحمارتك العرجاء، وتنازلني وجهًا لوجه، وحين تكون المبارزة غير متكافئة؛ سأعطيك بعضًا مما تشتهيه – نقودًا تلعب بها النرد أو الورق – حافزًا لك، وربما أعطيك خنجري}.

ترك "حامد" وراءه لُقيمات تسدّ بعضًا من الرمق حينما وجد "فتوح" على هذه الحالة، واستباح لنفسه خلوة، يطرد فيها ما عَلِقَ بداخله حتى لا يجهر بصوته؛ فتكون مشاجرة تعلو لرب السماء.

وضعتْ "زكية" رأسها بين الركبتين، ووضعتْ كفيها على أُذنيها، وأعلنتْ رغبتها في الصراخ، لكن صراخ "فتوح" يزيد طبقة أو طبقتين، ثم رضختْ له: {لكِ الله، حين تتجلدين، وتقطعين من قوت العيال؛ لتُرضي هذا اليافوخ المضغوط بالدم الحار، والفعل الحار} بين اليد اليمنى، واليد اليسرى ينتقل شريط الدواء الجديد، كطفل يقذفه إلى أعلى – ليستقر في حجره مرّات عديدة – منتشيًا من الضحك، وقف "حامد" قُبالته دونما حركة؛ فأخفى "فتوح" بسمة جميلة، وعتابًا مع شريط الدواء الذي استقر في جيب الصديري، بعد لحظة، أحسّ "حامد" بدمه يُلطخ حذاءه المثقوب؛ فتخطى "فتوح" حتى وصل إلى الفرن، وأمسك حفنات الرماد، ووضعها على الجُرح.

ضَغَطَ الدم الحار على يافوخ "فتوح" كثيرًا، فأنفقتْ القلوب ألحانها القديمة المختبئة، والصدئة، وجلس "حامد" بجواره،

وتحسسه على فترات متقطعة، ثم أمسك رأسه المضغوط، ووضعه على صدره، و"زكية" تساعد "حامد" بهرولتها الكثيرة، وجوارحها وأطرافها المبعثرة لا تستطيع لمّها، تذهب إلى الباب سريعًا، وتُلقي نظرات مرتجفة على الخارج، وتعود سريعًا، يطلب "حامد" منها أشياءً تنساها في الحال، أحسّ "حامد" بصدره يرتجف، انتقلتْ حرارة اليافوخ إلى صدره، تعجب لأمره، تحسس نفسه، ثم تحسس "فتوح"، الذي يذرف دموعًا من جسده، وعيناه تعاقران صورة حامد.

هرولتْ "زكية" سبعةً من المشاوير بين الباب وبينهما، عانقها "حامد" بحرارة، وقال:

- اهدئي.

لم ترد "زكية"، فقد كان صوتها محبوسًا، يخرج ضعيفًا، مبحوحًا، أدرك "حامد" خشيتها في أن يعايرها الجيران، فترك "فتوح" على وسادة من قش القصب، وقال:

- هو بخير.

عيناها ما زالت متوجسة، قلّد "حامد" صوت "زكية" وطريقة مشيتها، وانتزع منها ابتسامة ناقصة، ثم نفض عن جسمه دمعة كانت غائبة بين ثنايا قلبه، وعاش في الصمت حياة طويلة، بعدها؛ قفز كالمجنون، وراح يقلّد "فتوح" في كل شيء، وأسعفته الذاكرة الممتلئة، حتى غرق في الضحك والبكاء معًا.

استكانتْ "زكية" قليلاً على الجدار الذي أمامها، وراحتْ تسبل جفونها الوارمة.

الدقائق الوارمة بنبض مرتفع تمر، والحال كما هو الحال، إلا أن "فتوح" تمدد، وراح يغطّ في نوم عميق، وتحول الجسد المسجى إلى صورة رائعة، وبين الحين والحين؛ تنادي "زكية" "حامد" بإشارة من سبابتها المرتجفة.

الطبيب الآن يلقي سماعته الحديدية على الجسد الممدد، يقيس النبض، وربما العمر، والضغط، والحرارة التي لحقتهم جميعًا، سألته "زكية"، لم يرد الطبيب، واستقر نظره على "حامد" المتسمّر، ومن ثم؛ على "فتوح" الممدد، وقال بلكنة غريبة:

- الدوا بسرعة.

ومضى الطبيب مسرعًا، بعد أن ألقى في وجوههم أسماءً أجنبية.

لملم "حامد" شتات اللحظات المبعثرة، وخرج يركل الحصى، في عودته – والأسماء الأجنبية تثقل كاهله – وقف أمام محل صغير للأدوات الكهربائية، والتصق وجهه بزجاج الفترينة، وتعلقتْ عيناه على المبتكرات الحديثة، وتذكّر الريكوردر المستعمل، والمركون بجانب "الكراكيب" في "المندرة"، وتمنى شريطًا يملؤه بكلامه، أو كلام غيره، وفتش جيوبه، وعاد لفتوح محملاً برغبتين متساويتين، رغبة آنية ملّحة، تعطيه بهجة الفُرجة لنهاية يتمناها، ورغبة مؤجلة لا يعرفها مطلقًا، لكنه يودها حاضرة، رغم خوفه منها.

سقى "حامد" "فتوح" من الدواء ما استطاع، ونام بجواره بعد أن زهق من متابعته، وهو يعدّ أنفاسه. أتى الصبح سريعًا على غير عادته، والممدد يطلب ماءً، استبشر "حامد" خيرًا، ونادى "زكية"، وقد راحتْ البُحة من صوتها المحبوس، حمدتْ "زكية" الله، وعملتْ فطورًا كوليمة، وأحرقتْ البخور؛ فأكلا في صمت لذيذ، وغبش المبخرة يحجبهم جميعًا، "وزكية" فرحة بهذا الالتصاق، وفى عينيها ريبة، نظر "حامد" بإمعان إليه، وهو يلوك الطعام.

بين الغضب، والرضا؛ علّق "فتوح" بين يديه شريط "حامد"، وقهقه عاليًا، كأنما فاض الحزن بالفرح. تمالك "حامد" نفسه، وعلامات الاستفهام خوازيق تخرم ظاهره وباطنه، حدف "فتوح" شريطًا لحامد، ووضع شريطه المملوء بليل البارحة تحت وركه، قال "حامد" لنفسه: {كيف استبدل الشريطين، وكيف عرف نيتي، ومتى ابتاع الشريط الآخر؟}.

أحسّ "حامد" أنه بجسدين، أو روحين، وخبط رأسه بكلوة يديه، أشار "فتوح" بيديه إشارات؛ جعلته يحسّ أن سريرته مفضوحة؛ فلاذ "حامد" بالصمت، بعد مدة علا صوت "فتوح":

- آه من السؤال. الصمت أحسن لك.

عقدتْ الدهشة جوارح "حامد"، وأدرك أنه ينازله وجهًا لوجه، وكأنما يود أن يقول له: {قل ما تريد معرفته، اسأل}، نطق "حامد" بسرعة، كأنما ردد جسمه صدى السؤال، لكنه أدرك نفسه، وقال:

- كل شيء، كل شيء.

وحـاول "حامـد" أن يسـتعطفه، ويمنحـه قربًـا حميمًـا، وأبـديًا، والتصق به، وناوشه بكلمات وغمزات، وابتسم رغمًا عنه، وقال:

- لا تكذب.

- اخرس، والزم حدك.

واندفع "فتوح" بسرعة إلى سكة أخرى، يعرفها جسمه فقط.

خيمـة كبيرة مـن الصـمت احتـوتهم جميعًـا، و"فتـوح" يرتجـف قليلاً، أطرق "حامد" رأسـه، وحمله إلى سـريره، واختلى بـ"زكية"، ولمّا أحسّتْ برغبة "حامد" العارمة، حاولتْ أن تفتح حنكها، وبدأتْ تلم أطـراف الحكايـة، والحكايـة ترسـم على وجههـا أزمنـة، أول الحكايـة الصـلاة على النبي الهـادي، سـمع "فتـوح" حكيهـا، وهـو ممـدد على السرير؛ فقام وهو يلهث، وقال:

- أنا الأول.

ضحك "حامد" عاليًا، وأدرك أن له شاربًا قد طال هذه الأيام.

قامـتْ "زكيـة"، واسـتكانتْ في غرفتهـا، ونامـتْ مـن التعـب، وقـد كانتْ منتظرة دورها.

❊ ❊ ❊

عائلة فتوح

قالت الراوية: لن أدّعي – والبينة على من ادّعى – أن "فتوح" ليس له أب، أو عائلة.

قال الراوي: قبعتْ أساطير عائلته، ومجدها الرفيع في قلبه، وحفظ روايتها.

وقالت الراوية: عائلته – تجاوزًا لرفع مكانة "فتوح" – حديثة التكوين استقرتْ في البلدة؛ حين تمتعتْ بالأمن والرزق والسلطة في بعض الأحيان، وتناقل أسرارها الأبناء، والعارفون بها، والمجاملون، والمقربون.

وقال الراوي: أقدار البلاد الواسعة، وموازينها بين أقدام الرجال، وسواعدهم.

وكان دعاؤهم: (بارك اللهم لنا في اللصوص، لولاهم ما حدث ما نحن فيه، ولتغيّر مجرى التاريخ!).

❊ ❊ ❊

لم يجد اللصوص ذهبًا، أو فضة، أو خيلاً عربية، أو بهائم؛ فاستأنسوا الأطفال ببعض الألعاب القليلة، وأركبوهم البغال، وكمموا أفواههم بأياديهم المباركة، حتى ابتعدوا قليلاً، كانت إغارتهم مشهودة، وأصبح هذا اليوم كيوم السبت، لا يجوز فيه إلا الحزن، وكانت بالتحديد في الخرطوم، شهر مارس، أمام عائلتي المهدي

ورباب.. أكبر العائلات، فملكوا ممن ملكوا طفلاً من عائلة رباب، لا يتعدى الثامنة، استغاث بكل صفاء الطفولة التي يعيشها، لم يكن له صدى أبدًا.. غير أنين مكتوم، وكان نحيبه يعلو فوق شوقه إلى أهله، وآه من نحيب الغربة، والمجهول!

مرّ اللصوص الكرام على المستخدمين في الأرض، يبشرونهم بأن الرق للجميع، والأحرار القلائل يقلدون اللصوص الذهب والفضة والنساء، وفرحوا حين امتلكوا ناصية المحروسة، وتابعوا سيرهم حتى رستْ سفينتهم في بلدة الدلجمون، وفي جعبتهم الطفل الأسود "رباب"، هكذا نسميه كما سمى نفسه، و"رباب" بقيةّ بضاعتهم.

حين رآه عبد المجيد الفقي – الذي يملك من الطين ما يسد عين الشمس – انفرجتْ أساريره، وبانتْ أسنانه. ولمّا تحقق من الصبي؛ ضجّ في قلبه شك وريبة، وهاجس يلحّ عليه بقوة لشرائه، شاورهم في بيعه، لم يجد اللصوص مهربًا من بيعه بخسًا، ومرغمين.

أسدل عبد المجيد الفقي على الصبي كرمًا، وأسبغ نعماءه عليه، واستخلصه لنفسه: {لا تظنوا بعبد المجيد الظنون، كما يظن ندماؤه}.

نشط "رباب"، وازداد كرّه وفرهّ، وبدتْ سواعده كعيدان من حديد صلب؛ تمكنه من ضرب عشرين نفرًا، وقد جرّب ذلك مع خمسة أنفار من أحرار البلدة حين تحرشوا به، وعيرّوه: أنه عبد أسود،

وليس له أبٌ. صار طوله مترين.. عظيم الجثة ترهب المناوئين، والشتّامين، وأصبح خليلاً، ونديمًا لصاحب الطين.

حين تلمس الذكرى شغاف قلبه، ويتذكر الواقعة؛ يئن أنينًا مكتومًا، ولا يجد إلا البكاء صدرًا يريحه، ثم يلعن كل الآباء: {لو يعرف آباؤنا في أى هزيع يأتي اللصوص لسهروا، ووضعونا في قمقم، ولظل حالي مع إخوتي}، ثم يضحك، ويلقي في روعه اطمئنانًا: {كلنا مسروقون، رضينا أم أبينا! ورُب ضارة نافعة}، ثم يصمت، ويمسح بزيّه الأبيض علامات البكاء، حينما يلمح عبد المجيد قادمًا.

يقال: إن عبد المجيد يملك ثلاثة آلاف فدان، حتى نمى أمره إلى السلطان، أو الملك.

علم عبد المجيد بقدوم الدرملي باشا، ففرش الأرض بساطًا أحمر.. من موضع الحافلة إلى الدوار، وعلّق الفوانيس في الشوارع، أضاءها بالنهار، وساعد الشمس الخابية، وأظهر كرمه البليغ، وذبح ما يكفي البلدة، وضيوفها.

صافح عبد المجيد الدرملي باشا، وقبّل الأرض بين يديه، كان الوقت شديد البرودة، فأمر غلمانه أن يوقدوا التنور.

{فار التنور الذي يقبع رضيًا تحت الدوار، وأرسل حرارته في الغرف وعظام الدرملي، ولم يُحدث غبارًا أو وهجًا نلمحه، مما تأكد لنا أنه من عجائب الدنيا السبع، ولم يرد ذكره في الكتب}

انتهى الغلمان والعبيد من التدفئة، وبساط المائدة ممدود، ومملوء بما لذ وطاب.

- أدام الله عزك يا...

- عبدك عبد المجيد.

- يا عبد المجيد.

- أدام الله عز مولانا.

كان من نصيب "رباب" أن يقف بجوار الدرملي باشا – وياله من شرف ! – حاملاً الإبريق ليغتسل. مسح الدرملي باشا يديه بجلباب عبد المجيد، ومسحها في ذقنه، وفركها – وعبد المجيد يتأوه – وطلب من حراسه أن يكملوا الوليمة بجلد عبد المجيد عشرين جلدة، وانتزاع نصف ما يملك، كما أمره الملك.

حين همّ الحراس بتنفيذ الأمر الملكي، وعلامات الضيق بادية على الوجوه، إلا الدرملي باشا؛ وقف

"رباب" شاهرًا سوطه، اندهش الدرملي باشا، وأعلن أن العبيد يقاومون الملوك، فلما لم يجد صدى أو خوفًا لدى رباب – وجثته عظيمة ترهب الملوك – أعلن هدم هذه الناحية {ولسنا نعرف غضب مولانا المعظم، حين استخفّوا بأمره}، وهاصتْ البلد بالفرحة، واختلط العبيد، والأحرار، وفرح عبد المجيد، وقرّب إليه "رباب"، واغتم كثيرًا، وبدتْ دهشته وريبته واضحتين، ساعتها قال "رباب":

- أفديك أنا، وابعد عن الغمّ، وقل: عبد تطاول على أسياده.

عانقه عبد المجيد بحرارة، وبكى.

- وهبتك مائة فدان.

- لا. يكفيني رضاك، والأكل، والشرب.

قالها "رباب" تعففًا، فهو يعرف سرَ الأفدنة الكثيرة، وسرَ عبد المجيد في بئر عميقة، صحيح أنه العمدة، والآمر الناهي، لكنه ضعيف، وهو يعرف ذلك من عيني "رباب"، فقد نزح أبوه من المغرب، واستقر بين ظهورنا، ينعم ويشرب، وجعل خليفته عبد المجيد، وقد كان حسن السيرة، جميل الطلعة، رأى فتاة من عائلة ماضي – وكانوا أسياد البلدة، ويملكون كل الطين – فتزوجها. ماتت؛ فورث مائة فدان، وتزوج أختها، وجعل لها السم من نصيبها، والمائة الأخرى من نصيبه، وتزوج من الصغرى حتى امتلك خمسمائة فدان، تودد للمأمور، وللسلطة، حتى أصبح العمدة.

تزوج "رباب" من دار شلفوطة، ورَزَقه الله عيالاً يخلفونه في عمله، ويستأنس بهم، وينسى بعض أنينه المكتوم، وشوقه إلى أهله، وسمى عياله بأسماء إخوته، وتوالدوا كما الأرانب، واستقر بهم المقام، وأصبح لهم اسم، وعائلة، وشرف، ومجد لا ينكره إلا الجاحد.

❊ ❊ ❊

عائلة زكية

يقول الرواة: أبوها يُدعى "شكامه"، وليس تحت أيدينا ما يشفي غليل الصدر، ويزيح بعض تساؤلاتنا العقيمة، وبدايته غير معروفة لنا أسبابها.

❊ ❊ ❊

قال بعض أصحابه، والداخلين تحت لوائه، والساردين بعض أساطيره:

{كان يلبس جلبابًا واحدًا على عريه، ولا يتكلم إلا عند الضرورة، وطعامه مرة واحدة.. وقت الغروب، ولم يكن طعامه إلا كِسرة خبز، ولم يرقد على فراش، وقد حفر في جدار بيته حفرة، لا تزيد حين يقف فيها على طوله وعرضه، وكأنها برزخه، وكثيرًا ما كان يحبس نفسه فيها، ويسد أذنيه؛ لكيلا تصل إليه أصوات المتجبرين. وكان في بعض الليالي يربط نفسه بحبل، ويتدلى برأسه في بئر، بعيدًا عن البلدة.. ناحية الحوض الشرقي، يتأوه، ويعذّب نفسه، ويستدعي الشيطان الأقرع؛ ليلهمه الشجاعة، حتى انسل شعر رأسه، وسقطتْ حواجبه، وأكل قلب هدهد، وذئبًا مسعورًا، وبعض الحناشة السامة}.

سار"شكامه" برأسه المسلوت وحواجبه الساقطة شعرها، متباهيًا بقراعته، وكان يبحث عن بعض الرجال، وشق عليه ذلك،

وساح في مناطق مجاورة، حتى اجتمع له عشرون رجلاً، كلهم على شاكلته.

"شكامه" لم يكنز الجباية، كان يوزعها بالتساوي، ولم يخص نفسه بزيادة، مما جعله مسموع الكلمة، مهاب الطلعة، حتى ذاع أمره، وانتشر، ولم يقدر أن يبوح الرجال، والنساء بأن" شكامه" هو شيخ (المنصر) الحرامية، وكان الضعفاء يتهافتون عليه طالبين نصرته، فيرد إليهم بهائمهم، ويحميهم بحمايته، وقد اشترى حمارًا، ليقيه السير، والحرَّ، فكان يربطه بعيدًا عن داره، فينعم الحمار بالفول، والعليق، كما ينعم صاحبه بالجباية.

تزوج "شكامه" "مبروكة"، فوضعت له طفلاً، وكان الجو باردًا، والتنور ينعم ببعض الدفء بعد انتهاء الخبيز، فوضعتْ "مبروكة" طفلها في التنور لينعم بالحرارة، فمات، وماتتْ بعده بشهور حزنًا عليه، تزوج أختها الصغرى "جملات"؛ فتسرّى قليلاً، وأنجبتْ له فاطمة؛ فقرّ عينًا. ماتتْ؛ وتركتْ إرثها أمانة في عنقه. دفنها، وبحث عن عروس، أعجبته "زينة محمود"، وهو لا يدفع مهرًا، ولا يعمل فرشًا، ولا يبني خُصًا، هو المال، والسكن، والحماية كما كان يقول.

راودته "زينة محمود" عن نفسه، وخلعتْ جلبابها؛ فأبى، أشعلتْ في قلبه النخوة، وأنها مرغوبة من كثير، وأن فلان قد تكلّم عليها ليخطبها؛ فطلقها بعد ثلاث ليال فقط.

كان "شكامه" يتردد على العمدة كثيرًا، حتى مرّ عليه "زينهم" زوج بنت عمه، ردد صاحب له اسم "زينهم" كأنما يردد أغنية،

سمع "شكامه" دندنته، تلكأ في مشيته.. وأمسك أصحابه خطواتهم المتنقلة بين الموت، والحياة، وبين الخوف، والأمان.

وقف "شكامه"، وتحقق من هيئة "زينهم"، وسار إلى غايته، ارتجف "زينهم"، ومشى هرولة، ماسكًا ذيل جلبابه، مضى النهار الطويل، وأرسل"شكامه" إلى "زينهم":

- طلّقها.

صمت قليلاً. وفى الحال؛ ناخ عزمه، وأدرك ذلّ الرجال، وبللته دموع حارة، وردد: أنا.. أنا.

- طلّقها قلت.

- ممكن أعرف السبب؟!

- نفذ.

وتركه.. توجس "زينهم"، وشاور المأذون، الذي قال:

- لا تلق بنفسك في التهلكة.

اشتغل "شكامه" في آخر أيامه شيخًا للخفراء في عزبة الشريف، وكانت أُجرته عشرة أفدنة، يتعيّش منها.. غير تحصيل الجباية، وظلّ يعمل في عزبة الشريف حوالي عشرين عامًا، وقابل ربًا كريمًا قبل أن ينظر ملاحة "زكية".. آخر أبنائه، التي ماتتْ أمها بحُمّى النفاس، فحملتها أختها الكبرى، لترضعها من ثديها مع ابنها البكر، ولو ظلّ "شكامه" حيًا لضرب "فتوح" بالحذاء، ولربطه في جذع نخلة عالية، وأحرقها لو طلب أن يتزوج "زكية"، ولله في خلقه شئون، فالموت، والظلم، واللصوص يغيّرون مجرى التاريخ!

انسجام

تتزين "ستوتة".. أم فتوح مرغمة بالندوب، والبثور، والسُمرة، وكانتْ كلما خلتْ لنفسها؛ تتحس بفرحة ما تملكه في وجهها المكرمش، لم تجد "ستوتة" مفرًا من أن تعلن رغبتها الأكيدة لاقترانه ببنت الحلال التي سوف تسعده.

- خلاص، نعيمة الطوخى.

قمعين من السكر حملتْ، وزجاجة شربات، وأمنية تعذبها منذ أن رأتْ "فتوح" ذات ليلة شتوية، يقرّب إليه مصباح الجاز، ويكشح جلبابه الكستور، ويتحسس ما يملكه، ثم يستلقي على قفاه من الضحك، ومن التعب. بفرحتها طوتْ شوارع وتهاني وحارات ضيقة، حتى جلستْ بجوار أم نعيمة علي مصطبة الدار.

- ندخل يا خالة.

وظلّتْ بجوارها على مصطبة الدار، ساعة العصاري، عادتْ "نعيمة" من الفبريكة.

- سلِّمي على خالتك.

انكسفتْ البنت، ووقعتْ من يديها جزمتها البلاستيك، وتوردتْ وجنتاها قليلاً، وانحنتْ تُقبّل "ستوتة" التي سألتها عن أشياء قليلة، و"نعيمة" متلجلجة، فرحة، وخائفة في آن واحد.

- أهلاً.

قالتْ "ستوتة"، وقبّلتها من شفتيها، ولعقتْ عرق صدغها، ومن ثم مرقتْ "نعيمة" متوارية عن النظر، وملتحفة بداخل – الوحدة – الدار.

أشاعتْ أم نعيمة بعد مدة – منعا للإحراج – أن الأولاد إخوة في الرضاعة، والقلب صندوق مُغلق، والأسرار لا تنجلي إلا بعد ثلاثين عامًا، أو يزيد.

قالتْ أم فتوح كلمات محببة عن النساء، وجابتْ سيرتهن من شرق البلد إلى غربها، لكن فتوح نظرها مليًّا، ونفض كفوفه التى خبطها ببعضها، وإحساسه كرجل من النسا، كأنه يقطع سؤال أمه بيقينه هو، لكن "ستوتة" استندتْ على رغبتها الأكيدة، والتى بها تحققها أمام النسوة الأخريات.

البارحة جاءتها جارتها ببشارة ابنها، الذى تحققتْ رجولته عيانًا للناس الشكاكين بانتفاخ بطن زوجته التى تحمل أربعة عشر عامًا، لم تكن بشارة.. لكنها شيء آخر تعرفه النسوة فقط، تذكرتْ، وكان "فتوح" على وشك الخروج، علا صوتها بالفجيعة، لكنها تداركتْ موقفها، وأشارتْ إلى ناحيتين مختلفين، تذهب النسوة وبناتهن إليها باستمرار، وقالتْ:

- عندك الموردة[1].. مكنة الطحين.

---

١ الموردة: مكان بجوار شط ترعة الباجورية، تدفع الأمهات بناتهن للذهاب إليه، لملء الزلع والبلاليص بالماء، ولتصطاد عريسًا من الشبان الجالسين للسمر، ولهذا الغرض.

وكان "فتوح" يتابع لعبة "السبع شُقَفات"، وقدم داخل الدار، وقدم خارجها، قالت أمه أمام نسوة الشارع، وبعض الرجال:

- أنت ما فيك للنسا.. عوضي على الله!

شمّر "فتوح" عن سواعد، وأظهر عريّه نفيًا للإشاعة.

تقطن "زكية شكامه" الدار المُقابلة لدار "فتوح" منذ فترة قصيرة بعد عودتها من دار أختها الكبرى. هي تعيش مع أخيها سطوحي. قالتْ "ستوتة":

- قل لي رأيك في "زكية"؟

- بنت الحرامي!

- حلوة.. حلوة خالص.

- بنت الحرامي يا أمي؟

في نهاية المطاف؛ رد بضيق، وبصوت خفيض:

- دمها ثقيل، وباردة!

وجلس بجوار أمه فترة، يلاحظ طلوع ودخول "زكية"، بعدها؛ طلبتْ "ستوتة" من "زكية" الذهاب معها للبندر.

- لمّا أشاور أختي الكبيرة.

في البندر، نظرتْ "زكية" لـ"فتوح"، وهو يضع بجوارها الأرغفة الساخنة، والسردين المملح، وأقراص الطعمية، والعجوة، و نظرتْ "زكية" لأمه حينما جلس بجوارها، هي بين الولد وأمه، ولا مفر:

- تكلّمي.

قالت "زكية" كلمات قليلة بلا معنى، وكان "فتوح" يراها تثرثر بمرح مع نسوة الشارع، ما الذى جعله يدرك أن له سطوة عليها؟ اقترب منها، ودعاها للأكل، لم تأكل، ألحّ عليها، حتى مضغتْ لُقيمات قليلة.. ظنّ أن وجبتها ضعيفة، فاستمسك بها، وفرح، وأمهرها جنيهًا أحمر.. غير منقوص.

❊ ❊ ❊

مرزوقة الحمزاوي.. امرأة عمه

ترك عبد المعطي – وكيل شيخ الخفراء، وعم فتوح – مهنته وعمل ساعيًا بمدرسة جريس الابتدائية بالبندر، تزوج ثلاث مرات، توفيتْ اثنتان، وطلّق الثالثة.

مرزوقة الحمزاوي امرأة جميلة، تسكن في الشارع الخلفي، تزوجتْ وهي فتاة، أو زوّجوها إلى ابن خالها بقرية النحارية.

خرجتْ بالدفوف، حتى دكّتْ الأصوات جسدها، وغشاها النعاس بين أحضان العريس، وكان يأنس بشلّة يشربون الحشيش، ويمضغون الأفيون، حتى سقط مغشيًا عليه بين أحضان مرزوقة، حاولتْ أن تستنجد – بصراخها وعويلها – بالجيران، فلم يسمع بها أحدٌ، هي عروس منذ عشرة أيام فقط، الفرحة في قلبها، والرجوع بعد عشرة أيام مصيبة كبرى، والمصيبة الأكبر انتشار إشاعة مؤكدة.. مردودها: أن مرزوقة قد وضعتْ السّم لزوجها، فهربتْ بجلدها في منتصف الليل سيرًا على أقدامها الحافية، حتى استقرتْ في بيت أبيها، ربما يكون ملعوبًا حتى يتم الاستيلاء بسهولة على العفش المكون من: سرير نحاس، ودولاب، وصندوق ملابس مزخرف بالصور، وصابونة سمراء، وحصيرة من البوص، وبرنيّة السمن، وبعض الغيارات الداخلية.

عملتْ "مرزوقة" مع إخوتها في بيع مخلفات البهائم الناشفة إلى أصحاب الأفران، والمخابز. وكانت تساعد النسوة في الغسيل، والطبيخ، والخبيز.

فرحات بن عبد المعطي يعمل إسكافيًا، خافتْ زوجته من دخول "مرزوقة"، وهي مبرقشة حواجبها، ورافعة صدرها، وكانت تساعدها في الخبيز، والطبيخ، والغسيل، برغبة مُلّحة؛ قالت زوجة فرحات:

- "مرزوقة" بنت مُنكسرة الجناح.

وقال فرحات لأبيه:

- مرزوقة حلوة، وعلى مقاسك.

- ...الختام.

لم يسمع فرحات رد والده، لكنه قال:

- يعطيك طول العمر.

وقال جابر لأخيه عبد المعطي:

- صغيرة السن لا.

ردّ فرحات على عمه جابر:

- يا حاصل على الصغير يا حرامي السوق.

- لا يا عبد المعطي.

على بركة الله، وسُنة رسوله، وعلى وهن الجسد، وتاريخه، وطقسه الأخير، واستحلاب زهرة الماضي؛ تزوجها عبد المعطي مفعمًا بحرارة يقينه هو.

وحدهما – عبد المعطى ومرزوقة – وبينهما وهمٌ، وجسد، وغرفة مجاورة لغرفة فرحات وزوجته.

في أيامه الأولى؛ قبض عبد المعطي على وهمه وجسدها بقوة، وفي أيامه التالية؛ استلقى على ظهره مستسلمًا لجسده، وخيبة أمله، وأركبها على سنامه بعدما استقام له الأمر، وأيقن أنه جَمَل، وأمسكتْ – هي –خيزرانة حقيقية، وظلّتْ تضربه وتضحك، وهو يسير بها من زاوية لأخرى، وكان بعض أنينه يصل لفرحات وزوجته، قام فرحات مفزوعًا آخر الأمر – وآخر مرة – وفتح غرفة أبيه.

- سلامتك.

ولمّا استفاق؛ ظلّ مدة يومين يضحك، وهو يسترجع صورة أبية الجَمل.

بعد افتضاح أمرهما؛ ظلّ يُركبها على سنامه، ويضحك باشتياق كأنه يزيل ما تبقى له من أيام لا يعرف كنهها، وظلّتْ تضربه، ولم تنزع منها اللعبة ابتسامة، وأدركتْ أن غرفة فرحات مأهولة بأشياء لم تدركها حقيقة، تخيّلتْ قدر استطاعتها، وجسدها لم يدرك فرحته أو نفسه؛ فراحتْ تسلّم نفسها لذلك الذى لم يكن أبدًا لها.

تنشر "مرزوقة" بغرفتها غيظها الذي لم يعرفه عبد المعطي، وتغطيه بشتمتين، وتتمدد بجوار الجسد الناشف، وتطرح عليها وعليه آهاتها الناشفة، المنزوعة من جسد بانت شقوقه، والتي تحوي وحدة قاسية، ورغبة ملحة.

يحاول عبد المعطي كل ليلة أن يسترجع أيامه بالفعل، اعتبرها في البداية عكازه، وكانت بالنهار سندًا لجسده، وتخبز، وتطبخ، لكنها ليلاً تطرح أرض جسدها، لكنه نسي فأسه منذ مدة طويلة.

آهات زوجة فرحات – مسموعة لها – مرويّة بجسد عفي، والغرفة مفروشة بلذة مطلوبة، وغمز، وضحكات مكتومة، وأحيانًا عالية.

بعد أن فضحتْ زوجة فرحات تلصص مرزوقة؛ راحتْ كل يوم تمشي على أطرافها، تتحسس أنفاس غرفة "مرزوقة"، وحين تتأكد من صمت الغرفة؛ تملأ غرفتها بليل تملكه بالفعل، لكن مرزوقة أدركتْ ما حدث، ومن ثم قالت:

- أنا في جامع.

تململ عبد المعطي في رقدته، ونظرها، تركته في استنتاجه، وأرهفتْ السمع جيدًا، وكَمنتْ:

- اسمع يا عبد المعطي.

قام بسرعة فاتحًا باب غرفته؛ فوجد غرفة فرحات تُقفل بسرعة.

صباحًا؛ كان عفش فرحات وزوجته في الشارع، بعدها استوى فرحات من الغمّ، ونشف عوده، ومات كمدًا، ورقد عبد المعطي مستسلمًا لجسده بعد موت فرحات.

طرق "فتوح" الباب ودخل، فوجد "مرزوقة" على الأرض، ومحمود – ابن خال عبد المعطي – جالسًا عند رأسه، دار محمود

بالشارع الخلفي، وأبوه يملك ثلاثة أفدنة أيضًا، بجوار أفدنة عبد المعطي، قال "فتوح" لمحمود:

- إياك تدخل الدار وأنا غايب!

فرح عبد المعطي، وكان يغمض عينًا، ويفتح أخرى، وطلب من "فتوح" حساء كوارع، وأن يذهب مع "مرزوقة" إلى الغيط، سار مع "مرزوقة" في اليوم التالي، في منتصف الطريق، وقفتْ، وقالت:

- وحياتي، لا تتعب نفسك.

- والأرض؟!

- رح أنت، وانبسط.

وقف لحظة، والرجوع في عينيه، وفي قلبه ريبة، سار إلى غاية عمه، حتى وجد كل الغيطان ليس فيها ثمة شبح إلا محمود، دفستْ جلبابها في بنطالها الداخلي، وابتعدتْ عن نظره، أجلسها "فتوح" على رأس الغيط حتى انتهى محمود من الرّي إلا قصبة، نزعها من هدومها، وأحاسيسها لمّا شدّها فتوح، ساعتها أحسّتْ أنها عارية تمامًا، وأن جسدها هو فكرة في حد ذاته، وأنها لا تستطيع الانفلات من جسدها الذي يرغمها على ما هي فيه من أحاسيس متضاربة، وأدركتْ أن جسدها قيمة باقية وخالدة، وأنها أحيانًا لا تعرفه، لكنها في نهاية المطاف تنصاع لأمره، أدرك "فتوح" شرودها؛ فزعق فيها، وأمرها بالعودة إلى البيت، انتفض جسدها على الصوت الجهوري الخشن، وهبّتْ واقفة، في هذه اللحظة، لم تفارق عيناها الناحية التى يحتلها محمود.

- نمشي جماعة أحسن يا فتوح.

لكن "فتوح" لم يسمع، ولم يرد، ودخل على عمه، وطمأنه بأن كل شيء على ما يرام.

- مين كان هناك يا فتوح؟!

- محمود يا عمي.

وكان المرض قد هدّ عبد المعطي الذي نظر إلى "فتوح"، وقال وهو يحاول الحصول على نَفَسٍ طويل، يواجه به المجهول.

- خلّي بالك من الكلاب!

-كلاب؟!

وأمسك يديه، وصعدتْ روحه بين يدي "فتوح" المرتعشة، والمبلولة بعرق عزرائيل.

ترك عبد المعطي ولدين صغيرين، وكان للدار باب صغير يؤدي إلى الشارع الخلفي، وكان محمود كثيرًا ما يدخل منه حتى شاع الخبر.

مرّ "فتوح" وفي يديه (شومته)، فوجد "مرزوقة" تغنّي، وسراجها يبعث نورًا كثيرًا، والولدان أنزلتهما من السرير، وكان الفانوس المُعلّق قُبالة الدار، يُظهر نورًا أيضًا، ولمّا رأتْ صاحبة الفانوس "فتوح" يتلصص؛ قالت له – بصوت مشوش غير مسموع – كلامًا لم يسمعه، أمرها "فتوح" أن تأخذ الفانوس، وتقفل بابها. حملتْ فانوسها، ودخلتْ متلصصة، صعد إلى السطح، ونطّ على دار عمه، قالت مرزوقة الحمزاوي لفتوح وجسدها ينتفض:

- أنا وحدي!

مـزّق جلبابهـا، بـان جسـدها، تحسسـه، بـاردًا، ونظيفًـا مـن العـرق، ارتمـتْ على صـدره، وهـو صـامت عـزوف، والعـرق يتصـبب منـه، حمـل الطفلـين إلى سـابق عهـدهما.. السـرير، وأسـدل عليهمـا الغطـاء، توجسـتْ كثيرًا، وجسـدها كل الرجـاء، قبّلـتْ أرجلـه حتى ترك مكانه، وصعد على السطح؛ فخمد جسدها مع طفليها.

ينتظر "فتـوح" كل ليلـة، وقـد أقفـل البـاب الصـغير المؤدي إلى الشارع الخلفي ومحمود.

رمضان – الذي يشبه الهجانة – يحمل لهجة بربرية، وشفتين غليظتين، ونظرات لا تستقر، ويتزيّن كتفه العريض ببندقية، ترك الدلجمون منذ مدة طويلة، ربما وهو طفل، لا أحد يعرف، ساح مع الهجانـة في منـاطق كثيرة، ولمّـا بَعُـدتْ الـدلجمون عـن مخيلتـه الضـعيفة، ولمّـا اقتـرب المـوت مـن أصـحابه، عـاد بجَمَلـه إلى الدلجمون، وبنى مقبرة جميلة له، لكنه فتح كوّة في جدار المقبرة، وكان يقول: إن المقبرة بيتي، لا بد أن تدخلها الشمس، وزرع بعض الصبار، وشجرة ذقن الباشا، وبعدما نسي جسده المعلول الذى تعافى، ونسي المقبرة؛ عاد مرّة أخرى بجَمَله، وبنى دارًا، وتزوج، وذبح الجَمل في ليلة عرسه، بعدها؛ عمل بنقطة البوليس بمركز الشهداء بالمنوفية، الشيء الوحيد الذى ساعده في الترقي من عسكري درك: هو أنه يستطيع فك الخط، وفك الرقاب من أجسادها.

بعد السلام، والسؤال عن الأحوال؛ شمّ رمضان عبوس صاحبه "فتوح"، ناوشه حتى قصّ "فتوح" عليه خبر مرزوقة ومحمود.

يقول بعض الناس عن رمضان: إنه قتل أكثر من شخص نظير مبلغ من المال.

ويقول آخرون: إنه يقتل للشرف، والحق فقط.

ارتدتْ زوجة رمضان طرحتها السوداء التي استلفتها من جارتها، هي من عائلة محمود.

- خل بالك يا محمود، الموت واقف لك!

ما أصعب على الرجل حين يكون محاصرًا بالموت، والمرأة، والرغبة!

تزوجها محمود في اليوم الأول بعد التحذير، ربطتْ مرزوقة الحمزاوي قسيمة الزواج على الباب، وشتمتْ حتى ضجّ من قبحها "فتوح"؛ فأمر أخواته البنات بضربها كل يوم، ورّشت أخواته الماء الوسخ على محمود حين كان يضاجعها، لم تنس أبدًا منعها عن جسدها، ونشوتها المرهونة بمحمود، وكانت تحمل في أحشائها طفلاً منذ مدة، وفي البوسطة دفتر توفير يسع أربعمائة جنيه، لمّا انتهى المبلغ؛ طلّقها، وترك البلدة. وطفلها الرضيع ما زال في اللفائف، ويجزم "فتوح" أنه: ابن حرام.

❊ ❊ ❊

فاكهة المصريين

الإنجليز على مشارف البلدة، وعددهم على رأى "فتوح" عشرة آلاف رجل.

ذات مرة؛ كان "فتوح" جالسًا يمسك صنارته، يصطاد في ترعة الباجورية، هي قناة مائية يستخدمها الإنجليز في تنقلاتهم، لمحه "فليب" الإنجليزي الأحمر، وهو من لندن، له مراعٍ وأغنام كثيرة يجزّ صوفها، ويبيعه نصف سنويًا. يأخذ راتبًا شهريًا أربعة وعشرين جنيهًا، وأبوه يحصل على نصيبه أيضًا، نفس المبلغ تقريبًا، لكنته العربية ركيكة، يمكن أن تتعامل معه، وتفهم منه، وكان عُمر "فتوح" سبعة عشر عامًا، تقرّب "فليب" منه وأكرمه، وأعطاه علبتي "لنشون"، وعلبة سجائر ماركة القسيس، لم يخف "فتوح" من عدوه، وأبدى استعدادًا طيبًا للقيام بأي عمل مقابل ما يمنحنه له "فليب"، وافق أن يعمل عنده لمدة شهر؛ ليتعلم منه الصيد بالصنارة المصرية، وراتب "فتوح" عشرون قرشًا.

كان "فتوح" يدخل "الكمب" – في أي وقت حسب اللوائح، والتصاريح – لينهي عمله، وليكنس خيمة "فليب"، وجد مسدسًا، يحمل اثنتي عشرة طلقة، لمّا وضعه في جرابه، وهمّ بالخروج؛ أوقفه الأسترالي، ولطمه بيديه القويتين لطمات جعلته ينكب على وجهه فزعًا، حتى انتهى الأمر إلى "فليب"، الذي عرف الحكاية من الأسترالي، طلب "فليب" من "فتوح" أن يأخذ المسدس هدية، لم يرد

"فتوح"، قال "فليب" متنقلاً بين العربية، والإنجليزية ببراعة المقيم، ورغبة المهاجر للعودة، ناظرًا إليه بنظرة كاشفة:

- خذه لـ father

رفض "فتوح"، لم يصدق فليب حكاية الأسترالي، وانتهى الأمر بهذا الموقف، ولم يحمل أي منهما ضغينة للآخر، أو توجسًا.

كان "فليب" يحمل شارة خضراء على كتفه، همّ "فتوح" بالسؤال عن سرّ الشارة؛ فغضب "فليب" كثيرًا، وانقطع عن الصيد مدة {" فليب" لن يعود، سيعود} عاد، وأفهم "فتوح" أن الشارة الخضراء تعني: إنجليزيًا صرفًا، والشارات الأخرى تعنى أُجراء من كل بلاد الدنيا.

قابل "فتوح" أمام "الكمب" امرأة اسمها "فاتن"، تبكي بحرقة، وتدعو على الإنجليز بكل لغات العالم:

- مالك يافاتن؟

- الله يخرب بيتهم!

وعرف أن ثلاثة من أصحاب الشارات الحمراء أرادوا شراء ما بحوزتها من جميز، وكانت تنادي عليه بصوتها الشرقي الجميل، تطلعوا إليه، لم يعرفوا اسمه، أو رائحته، أو طعمه، دعوا ثلاثة آخرين للتأكد. لم يعرفوه، استداروا، ورفعوا القفص عاليًا، وداسوا الجميز بأرجلهم.

سرد "فتوح" الحكاية، وطلب من فاتن كمية من أعزّ الجميز رتبة، وقَدّمه إلى "فليب"، الذي تذوقه، أثنى "فليب" علي الجميز،

وجمع عساكره، وأمر أصحاب الشارات الحُمر أن يدفع كل منهم عشرة صاغ نظير فعلتهم، حتى أصبح جُملة المبلغ: أربعة جنيهات.

أعطى "فتوح" "فاتن" خمسين قرشًا، ووضع الباقي في جرابه، وحذر "فتوح" "فاتن" أن تنادي على الجميز فاكهة المصريين أمام"الكمب".

وفي يوم ما، كان "فتوح" يسير مع فتاته الجميلة – مرزوقة الحمزاوي – أمام السكة الحديد، وقف قطار إنجليزي أمامه، طلب من بعض العساكر بعض السجائر، واللانشون؛ فهتف جون الإنجليزى.

- شفت Girl

No -

قالها "فتوح" بسرعة، وكان "جون" قد قفز، وجرى على مرزوقة الحمزاوي، وحاول ضمّها، صرختْ، ونظرتْ لفتوح نظرة عتاب مرّ، لكنه لم يرد، ولمّا انشغل "جون" بجسد مرزوقة؛ أمسك زلطة كبيرة، وضرب "جون" على رأسه من الخلف، والإنجليز يلوّحون، ويصفقون.

- برافو.. برا فو.

ولمّا رأى جون الدم يسيل على جبينه؛ أمسك مرزوقة بعنف، ومزق ملابسها، حتى فزّ الصدر الأبيض، وبان للعين، وبللتْ دموع عينيها الصدر العاري، وسقطتْ على الأرض من فرط ضعفها.

رمى المتفرجون علب سالمون وسجائر، وأشياء أخرى؛ لمّا زعق القطار، وهمّ بالرحيل، وجون – الذي ركب القطار بصعوبة – أمسك بندقيته، وصوّبها ناحية "فتوح"، الذي انحنى تلقائيًا يمسح دموع مرزوقة، وعيناه على الصدر المكشوف، وكانت رصاصات "جون" في الهواء الطلق تعلن أشياء لا نعرفها بعد.

لملم "فتوح" علب السالمون، والسجائر، والأشياء الأخرى، ووضعها في حجر جلبابه الواسع، وجلس أمام مرزوقة، التي حاولتْ ستر جسدها بكلتا يديها، وبعد مدة تركتْ نفسها لعين "فتوح"، وتلامستْ الأجساد، كان الوقت بعد العصر بقليل، ببطء حاول كل منهما معرفة جسد الآخر، بعدما فتح "فتوح" علبة سالمون، ودخن سيجارتين، قطعتْ مرزوقة متعته، وقالت:

- أزاي ح أروّح الدار.

أسكتها "فتوح" بأشياء ترغبها فعلاً، حتى كلّتْ سواعده، وغطتهما الظلمة، ولمّا أدرك "فتوح" أن الناس قليلة؛ خلع جلبابه، وستر به مرزوقة، وسارا متجاورين، حتى أدرك دارها، وقبل أن يمضي؛ أعطاها نصف الأشياء التي معه؛ فقبّلته قُبّلة طويلة برضى مفعم بالنشوة.

❊ ❊ ❊

٢

حان اختطافك، فانتبه!

الولادة والألم

كلما مرّت "زكية" بناحية ما؛ تجد الأسئلة على قارعة الطريق، وفي الهمس الدائر، حتى العيون معلّقة على بطنها.

- هاه.. تكلمتي مع ابنك اليوم؟!

- وحفظت كلامه.

- قولي لنا كلامه!

- قال: "يا زكية"، لا تفتحي حنكك قبل يوم سبوعي.

تضحك النسوة، ويتحسسن بطونهن المنفوخة، ويمهدن الطريق بحكايات مماثلة حدثتْ لهن.

{أنّى لي أن أُعرف، والعرافون، والمنجمون لم ينشروا في الأرض أخبار قدومي، اشهدوا لي، لن يشهدوا إلا بما يعون بأسماعهم وأبصارهم، سأقف على حدود قلوب من يعرفني، سكتوا، والبشارة في قلوبهم. صرختُ: أنا سيف العشيرة، فاعرفوني؛ أعرفكم}

هذا ما قالته "زكية" عن ابن بطنها يوم "سبوعه".

* * *

زففتُ البشارة إلى امرأة "فتوح"، ورجوتها أن تجعل البشارة في قلبها بقدر الاستطاعة، ألقتْ سرّ وجودي على الرائح والغادي، فضحتني امرأة فتوح، وفضحتْ نفسها، فقد كانت بشارتي انتفاخ بطنها.

من يتلقاني حين أصرخ صرختي الأولى، معلنًا في الفضاء وجودي المحسوس؟! لا بد من يد حكيمة تأخذ بيدي، فجلدي رقيق، وبدني ضعيف، وصوتي حبيس.

"زكية" لا تفكر في شيء غير الخلاص من أوجاعها، لكنها صرختْ بكل عزمها، وقوّضتْ سكون العالم، ولمّتْ صرختها العدو، وانتصبتْ "ستوتة" واقفة تمنع الداخلين لحرمها الآمن، الألم الآن مشاع، الشيء الوحيد المخبأ عن عيون الناس جسد "زكية"، الذي تحفظه "ستوتة" مرغمة، وقفتْ "ستوتة" شامخة، وانحنتْ على "زكية" المركونة على الفرن، ورفعتْ جلبابها المبلول بسوائل مختلطة الألوان، ورأتْ بعضًا من الغيب المفرح لها {ولد يا ستوتة، ولد يرفع رأسي وقوائم بيتنا، الذي تتوارثه الحريم منذ خمسين عامًا أو يزيد، ولد يصلّي لنا، ويذكرنا الناس به}، ونسيتْ نفسها في الغائب الحاضر، وفي ذِكّرها الدائم.. خلودها، وفي تعديل كفّة الميراث {الولد يقش} قالت لنفسها، وابتسمتْ، ساعتها؛ تحسستْ بفرحة عمرها ما تملكه في وجهها المكرمش، وفعصتْ دماملها، واستعادتْ ذكرياتها، واحتلتْ ابنتها فاطمة، التى تسعى في بلاد الله كل الصورة، وانكمشت من الألم، لكنها لم تندم، ولم تتذكر من ولادتها غير أنها: لم ترضع ابنتها مدة أسبوع، حتى كاد اللبن ينشف من صدرها، وسألتْ نفسها عن سرّ كرهها للبنات، ربما الزمن وعدم الإنجاب يفرزان إجابة مقنعة، هذا سرّها دائمًا وأبدًا، لا أحد يعرف، وهي لا تفصح، وتذكرتْ زوجها الذي فارقها منذ ثلاثين

عامًا أو يزيد، لا تعرف له قبرًا، أو مطرحًا، لا تعرف أحي هو، أو ميت؟

الخبط على الباب أجّل سرحانها، رأتْ "زكية" شرود "ستوتة"، واستعادتْ تفاصيل الولادة السابقة، وكيف أن "ستوتة" استلمتْ هدية البطن الأولى، والكلام الذى قالته، وكيف أرادتْ تطليقها من "فتوح"، وتذكرتْ يوم سبوع البنت، واستعادتْ مشهد "ستوتة"، وهي تحاول أن تخنق ابنتها، ساعتها، صرختْ صرخة أخرى:

- الحقيني يا خالتي!

وغابتْ زكية عن الوعي.

هرولتْ "ستوتة"، وصاحتْ في "أم الفار"، التي تسكن أمامنا، هرولتْ القابلة إلى "زكية" حين كنتُ أفسح مكانًا لنفسي، جالبًا بعض الألم، وكل النشوة لمن ينتظر. سأتركهم في هواجسهم، وأفراحهم، ولن أكلمهم!

تلقتني "أم الفار"، وكانت تسحبني بحكمتها، وأنا كالجَمل، إن قِيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ. أخذتني، ورمتني على خرق بالية كثيرة، بعدما مسحتْ عنى الدم الفاسد، والمنتظرون يلتفون حولي، يمنعونى الرؤية والهواء، وأنّى لي أن أزجرهم؛ فحيثما تكن الجثة، فهناك تجتمع النسور!

اجتمع خلق كثير، حينما لبوا ندائي، وصراخي، فأتوا مهرولين، ليشهدوا منافع لهم، وليميزوني، وليتقربوا لي بالقرابين، معلنين وجودي على الملأ، كانوا يدورون حولي كشيخ مقطوع نذره، يبتهلون

ويترنمون، حين انتهوا من الطواف – وقد قبلتُ طوافهم – وإنارة القناديل، والدعاء؛ أشرتُ إلى من وكلتهم بضيوفي أن يُخرجوا من كل صنف بهيج، وابتهجنا جميعًا، وبين الحين والحين أصرخ، متذكرًا شيئا ما، لا أعرفه.

دخان النرجيلة يغشى المكان، ويفرق بين الأجساد، لم أتعود بعد عليه؛ فسعلتُ كثيرًا، والصباح على وشك الانفلاق.

لم أبد اعتراضًا في الأيام الأولى، حتى كبرتْ سعلاتي في صدري، وأصبحتْ تلازمني كحضن، وثدي أمي، حتى بلغتُ خمس سنين.

بعدها بقليل؛ أفرغتْ اللوزتان ماءً، وصديداً نتناً في أذني، حتى كَلَّ سمعي، بتُ أنظر، وأمعن النظر في حركة الشفاه. وحُملتُ قسرًا إلى الطبيب رماح بالمدينة المجاورة، التي يقطن فيها شيخ العرب، هدّني الألم، وآهاتي تسربل وجوههم بالغم، الطبيب أصلع، يكسوه لحم أحمر. له نابان كأرنب جبلي، نظرته من خلف نظارته حادة، أعترف أنه جزار، وله ملامح جزار أعرفه عن قرب.

- يحتاج عملية،

فهزّتْ "زكية" رأسها بالموافقة.

- يدخل المستشفى، ويعمل العملية بعد يومين.

- الله يبارك فيك.

- البركة فيكِ.

وهو يلوح لها لتحدف المطلوب.

- أنا على باب الكريم!

- كلنا على باب الكريم، ثلاثون جنيهًا يا حاجة.

ضربتْ أمي صدرها بحرقة، مما أوقع الطبيب في حيرة، غبّرتْ النهار، وسوّدته؛ فطردنا الطبيب شرّ طردة، رجعتْ إليه عسى أن يخفف، يأستْ منه، وجرّتني، كادتْ تخلع ذراعي، لم تلحظ تأوهي، عادتْ إليه عسى أن يخفف عنا، توسلتْ، ودعتْ إليه بأدعية مخصوصة، رقّ حاله قليلاً، وسأل عن زوجها، أسرعتْ في الإجابة:

- عاطل.

خبط كفًا بكف، ومصّ شفتيه، وتعلّقتْ نظرته على هدومها، أحسّتْ بموقفها الحرج وغير القانوني، فقالت:

- أبيع الفجل، والجرجير.

قال بصوت عالٍ:

- بتكسبي كثير.

سحبتني غاضبة، وكانتْ تبرطم، وتود أن تدعو عليه، لحقها قبل خروجنا، وخفف عنا ثمن العملية، وجعلها عشرين.

كل ما كان يعمله "فتوح" معرفة ما جرى فقط، ثم يعود إلى الحانة، ونرجيلته، أصابني فزع، وهمّ، مذ كانت أمي تهرع إلى الممرض، والطبيب، تتوسل.. تدعو، وتبكي أحيانًا، وتجلس على البلاط البارد بجلبابها المتشح سوادًا، كان بكاؤها يرطب قدميها الوارمتين، التصقتْ بالأرض، وعفرتْ جبهتها شكرًا لربها، حين وافقوا على الدخول.

المستشفى الكبير، وليس لي بها عهد، توسمتُ فيها كل الخوف، والرهبة، حاولتْ "زكية" تهدئتي، وأفرحتني بسباطة موز بلدي؛ التهمتها خوف الجوع، تركتني وهي تتوسل إليّ أن أتحمّل الليلة فقط، شغلني السريرالمريح – وكنا ننام على الأرض – وجسدي النحيل يغوص فيه، ليعرف أسراره، حتى أدركني النعاس، وبطني مملوءة فاكهة كثيرة.

صحوتُ على هزّة هينة من الممرضة المتشحة بالبياض، قمتُ والفزع يتملكني، سرتُ وراءها كما أمرتني، وهي تقرقع بخفها، والنور الأبيض البسيط يقع على البلاط، فيزيدني رهبة ورغبة في الهرب، أين أنت يا أمي؟ والليل قد انتصف، وليس معي نقود، ليس لي حيلة في الرجوع، استسلمتُ لها، وكشحتُ ملابسي عن آخرها، حتى بانتْ مؤخرتي، ماذا تريد؟ لو تعلم أني لا أضاجع أحدًا والخوف معي، وكيف لي أن آسرق ماء الحياة من عين الحياة؟ تأمرني بالانحناء، سيدتي لم أبلغ الحُلم بعد، اغتاظتْ، ورشقتْ بمؤخرتي حقنة، وأفرغتْ في جوفي ماءً مختلطًا بالصابون، بكيتُ – وقضاء أخف من قضاء – والماء دافئ في بطني، وعلى خدي، قرقع جوفي كما كانت تقرقع الممرضة بخفها، كررتْ معي المحاولة، لم تفلح، حتى انفلق الصباح، فصمتُ ذلك اليوم شكرًا، حتى خلا جسمي النحيل من لُقمة تقيم أودي، لمّا انقضى وقتي، سحبوني على وجهي فوق منضدة تسير، دخلتُ الغرفة، وأمي لم تدخل، والأشباح الموجودة ملثمة، مستعدة لتقطيعي – وما اجتنيتُ ذنبًا

– بالسكاكين التي من كل صنف ولون، وهي بكثرة تسد عين الشمس، وحدث ما حدث، ولستُ أهلاً لمعرفة تفاصيله، ورحمتُ نفسي بمعرفة قدري، غبتُ عن الوجود، من الشروق إلى الأصيل، نطقتُ؛ فانطلقتْ أمي تتحسسني. حاولتُ القيام؛ فقامتْ القيامة من جوفي، وانكبّ ما في جوفي من مخدر.

نظرتُ حولي، فلم أجد إلا أمي، وحين خرجتُ، تعكزتُ عليها، وسرتُ أتنسم من المدينة وضجيجها المعهود لأصحابها، والغريب على سمعي، ودبيب في بطني يمزق أحشائي، وقفتُ أمام عربة متجولة تبيع الكشرى – للأغراب – المخلوط بالذباب، والطين، والزلط، حينئذ أخرجتْ "زكية" كيسها المربوط دومًا على صدرها.

دخلنا قعر الدار، والحصيرة في صحنها، "وفتوح" قاعد، ممدد، يدخن نرجيلته، التف إخوتي حولي، يمنحونني رؤية كانت غائبة، وشوقًا يملأ جوارحي، والجيران من كل صوب وجهة يباركون خدي بالقُبل، فقد عرفوا موعد قدومي، لم يقم "فتوح"، ولم يبد التفافًا، حتى قعدتُ بجواره، فتبسم، وانتهى إلى نرجيلته.

* * *

وعد بالعودة

قطعنا الزمن متعجلين، ومتذكرين وعدنا للطبيب، والدود في عظام السمع يتعبّد، ويواظب على نُسكه، والألم يقضي ساعات بالنهار، وساعات بالليل يجالسني، ويؤنسني.

عدنا إلى الطبيب "رمّاح"، وفي جعبتنا الشيء الكثير، والشوق إلى رؤيته، جعل المقابلة غاية في السخونة، لم يهتم بشوقنا، ولم نستطع أن نتذكّر المبلغ الذي حدده، تمسكنّا حتى نتمكن؛ فلم يزدنا إلا صراخًا، وعويلاً، لم تنفع معه الأدعية المستحبة، والمخصوصة، تغيّر كثيرًا، قالت أمي:

- نقسم البلد نصفين.

عيّرها ببيع الفجل، إنه يتذكّرها، نكسنا رؤوسنا، وهبطنا مقهورين نلوم الشح واليد القصيرة، صرخ "فتوح" لاعنًا كل الأطباء، "زكية" متأرجحة بين الرجوع والمضي قُدمًا، تتمتم، وتشدّ فتوح من إزاره، نصعد درجات السلم مكرهين، تدعو له، ربما يرقّ لحالنا، مثقوبة السماء للفقراء، الله – الدمع – وحده يخفف عنا، لم يتزحزح مطلبه، وزاد عليه، هبطنا و"زكية" تدعو عليه، وتحاول أن تكشف رأسها، دلّنا رجل طيب على الطبيب شعبان، عمل اللازم، وحدد المبلغ، كان هينًا لينًا معنا، ولم يك جزارًا، رقّ لحالنا، وقسّم المبلغ نصفين من تكرار الأدعية المخصوصة، طلبنا مهلة لندبر أمرنا، عدنا إليه، وفي جعبتنا ما طلبه.

أكلتُ كثيرًا، و"فتوح" و"زكية" رجعا إلى البلدة.

الأسـرّة كثيرة، والوجـوه صـفراء فـاقع لونهـا، جـزءٌ أنـا، الآهـات تقتلني، والألـم قـابع في كل شـق، جلسـتُ وحيـدًا أتفـرج، الفرجـة زنقتني من الظهر حتى الغروب، زهقتُ، وقررتُ العودة، تحسستُ جيبي، كانت "زكية" قد دسّتْ فيه مبلغًا على سبيل الفرحة، لم يعترضني أي شخص، أحسستُ بالفرحة حين مشيتُ، حتى انتهيتُ من أسوار المستشفى.

سرتُ قافزًا، فرحًا، وركبتُ وحدي إلى بلدتي، وحددتُ معالمها من الذاكرة، وحفظتُ اسمها ورددته للسائق دون خوف، متباهيًا، وخطواتي سريعة.

الوقت غروب حين نزلتُ، وخطواتي كالحافلة التي ركبتها وحدي، و"فتوح" قاعد في صحن الدار، وإخوتي في زوايا متفرقة، وزكية تعمل شايًا، حين لمحني "فتوح" قال:

- القيامة قامت؟

لم أرد.

- كفياك خيبة، اشبعى يا "زكية" بخلفتك!

وضرب نفسه بحذائه على صدغه، توسمتُ أن يضربني، وركنتُ إلى دمعي، قامتْ "زكية" تهدئني، واعترضتني في صدرها.

- رح المستشفى حالاً.

لم أرد؛ فلبستْ "زكية" زيّها المتشح سوادًا في الحال.

سحبتني "زكية"، وأنا أخطو إثر خطواتها.. نقلة بنقلة، فزعتُ حين رأيتُ سور المستشفى، أدخلتني، وأوصتْ عليّ أصحاب العاهات، والمرضى، تسامروا معي؛ فأنسوني خوفي.

تآلفتُ سريعًا مع محمود صاحب التراتيل المنغمة.. تقريبًا نفس عمري، يلازمني في الداء، وفي الصحبة والتجوال، حتى حفظنا الوجوه، والأقسام، والأطباء. بتنا نخرج نتنسم هواء، وضجيج المدينة، محمود أزهري، يحشر كل شيء في الدين، وقد كنتُ – قبل دخولي – على وشك الانضمام إلى الجماعة المشهورة – جماعة الإخوان – في بلدتنا، داومنا على صلاتنا، وصلتنا؛ حتى بات كل شيء هينًا، وكنا ندخل مقر الموتى، فيشتد يقيني: (إنا لله، وإنّا إليه راجعون)

رجعتُ.. حضنني "ياسر" بالتناوب مع الآخرين، وقد جلسوا على عتبة الدار انتظارًا، وباركني من باركني بالقُبل، والضمادة على رأسي أحاول إخفاءها، اغتبط "فتوح"، وصافحني، جلستُ بجواره، و"فتوح" ينفخ في نرجيلته تارة، وينظرني تارة.

❊ ❊ ❊

اعتذار

بعد عودتي، التحفتُ بالدار أيامًا، ثم سرتُ داخلاً، وخارجًا.. يزهو بنا اللعب، ولا يفارقنا، ونرجع بيوتنا غانمين بالتعب الأكيد؛ فنستلقي على الحصير مستسلمين للجسد.

غضب "فتوح" من سيرتي حين علمها من "زكية"؛ فوجّه كل اتهاماته لي، وبعنف، وأنا – واقف – أنظره شذرًا، غافلني، وانقض يضربني، ويسبني، ربما أرعبته نظرتي، لم أستجب لضربه وتهوره، نظرتي أكثرحدة، ورغبتي أكيدة في أن أرفع ذراعي، وألطمه كما لطمني. شُل ذراعي، ولم يبدِ حراكًا، لستُ أعرف ذلك، جريتُ من أمامه، وكان الباب مغلقًا؛ فصعدتُ درجات السلم قافزًا، منكفئًا، وألقيتُ بنفسي في الشارع الخلفي، وظلّتْ هرولتي معي، حتى ابتعدتُ.

التصقتُ أنا و"فوزي" كجسد واحد، تناول عشاءه، وأنا بجواره أقضم الأرغفة سريعًا، لم يعد أمامي إلا سكن الجسد المتعب، أويتُ بعد العشاء مكاني، واستسلمتُ للنوم، "زكية" تنقّب عني، حتى تحسستني ملقى بجوار"فوزي"، رجعتْ بيتها المسكون بصوت "فتوح" الجهوري؛ فقالت:

- مريض يا فتوح.. مريض!

- يسمع كلامي يا زكية الأول.

عـادتْ "زكيـة" تلاطفني، وتحـاول إزالـة مـا عَلَـقَ بجسـدي مـن لطماته، وقبضته، وأنا أستشيط، وأعلن رفضي، إهانتي لا يزيلها إلا رفضي، وتركه وشأنه، بكى؛ فأبكي، ألقي في وجهها فعله؛ فتزجر "فتوح" في نفسها، أعرف ذلك من تمتمتها، التي تحاول إخفاءها.

- استسمحه، وارجع.

فأشحتُ بوجهي عنها، وأم فوزي لا تحبني، أعرف ذلك من بقايا الطعام التي تحدفه أمامي، نظرتها إليّ ريبة، وقرف، رغم أنها خالتي.

بعدها بيومين؛ عنفتني "زكية" بشدة، سوف أرضخ لعفو نفسي؛ أن ألقي اعتذارًا، أجلسوني مرغمًا، وأكبرتُ نفسي للمسنين، وأم فوزي فرحة، قالوا جميعًا:

- بُس راسه.

تأبيتُ، نفسي عزيزة، للاعتذار قواعد، فهممتُ بالقيام هربًا، يمكن لي ضرب توسلاتهم في الحائط، الدمع يسح من عين"زكية"، وقلبي ما ارتضى الاعتذار، وليس لي جرم غير نظرتي – والنظرة الأولى لي، والثانية عليّ – فأنختُ نفسي لدموعها، وقمتُ محمولاً على همّ عظيم، وأمسكتُ رأسه، وكان في استطاعتي أن أقطعها، أو أبصق عليها. قبّلتها بقرف، ورائحة العرق زكمتني.

قام "فتوح" شاكرًا الجميع – وأم فوزي منشرحة، فقد وفرتُ لها بقايا الطعام للطيور – مزهوًا بجلبابه الصوف، وحبك طاقيته، وعوجهًا، وسار مرحًا، مشينا وراءه، و"زكية" تلاطفني.

❊ ❊ ❊

الكيل، والميزان

يُعلّمني "فتوح" الكيل، والميزان، والقدح، والأردب، ويلح في تعليمي، و"ياسر" يجاوبه بسبب القدح، والأردب، والكيلة، وتقسيماتها اللعينة، والمألوفة لديه، ولياسر، ومنعًا للشجار، والخلاف؛ أختفي منه، يناديني؛ فأعطيه كتابي، يقلّب الورق، كأنما يبحث عن صورة لامرأة.

- شفت!

فيشتمني أمام "ياسر"، {يرحمك الله، لن أستطيع فيما بعد أن أرفع رأسي أمامه؛ فالأخ سلاب}

وينهي حديثه معي:

- مخك زنخ.

فألمّ كتبي مزمجرًا – ولم أعرف معنى الكملة، إلا متأخرًا، وكانت تصيبني بأذى من تكرارها – وفي عيني دمعة، وفي فمي شتائمه – ولكني لا أقوى على ردها – وأضع شكايتى أمام "زكية"، لعل وعسى.

مرّتْ الأعوام سريعة، وطلب كتبي مثل الأعوام الماضية، تفحصها؛ فوارى رأسه الخاوية، إلا من الكيل والميزان.

البرزخ

تعلم "ياسر" الكيل، والميزان، وحفظ تقسيماتها عن ظهر قلب، ولم تسعفني ذاكرتي، و"ياسر" يسلبني كل شيء {فلتأخذ مكاني؛ إن أردت}

- مخك زنخ {قل ما بدا لك، فلن أغيّر موقفي}

يخصني الصيف وحدي، أمرح، وألعب كيفما أشاء، وأظلّ هكذا مدة، حتى تفيض جوارحي بصيف الأكابر.. نوادي، شواطئ، مصروف، هدايا، ملابس، أحاول أن أمرح فلا أجد مرتعًا إلا طين ترعة الباجورية، ويشاركني في العوم زملاء أعزاء.. البط، والديدان، ومخلفات البهائم، وما نفق منها. تيأس "زكية" من نظافتي، وهدومي المتسخة، تحاول إرسالي عنوة نفرًا إلى (الخولي)، لنقاوم دودة القطن – لا أستطيع مقاومة "زكية" – فأستسمحها ببكائي، تغمض عينها على يومين فقط، ومن ناحيتي أمطّ اليومين أيامًا كثيرة، بالهرب من وجهها الكريم، أو بالنوم المصحوب بالألم المزيف.

مطيع "ياسر"، أشار عليّ، بعدما أشار على "زكية" أن نستأجر عربة يد، نبيع فيها "الدندرمة"، استحييتُ، ثم تسلينا بالأطفال، ولحس "الدندرمة"، وجيب سيالتي ينتفخ بالربح المبارك، وكنا نمر مرور الكرام على شارعنا لتطمئن "زكية "؛ ولنحصل على أرغفة،

وغمـوس، حـين عبرنـا الشـارع؛ سـمعنا مناديًـا ينـادى: أن ارجعـوا لفتوح.

- خير إن شاء الله.

- عايزكُم.

قلت لياسر:

- أول مرة يطلبنا.

ولهثنا، حتى أسلمنا العربة لصاحبها، وهرولنا حتى دخلنا قعر الـدار مجفلـين، جلـس "ياسـر" سـريعًا في حضـرته.. بجـوار رأسـه، وقفتُ بعيدًا عنه، ألهث وأنتظر، يتأوه؛ فأطل بجذعي، وأختلس النظر إلى رقدته، لا أقدر على الدخول وأقدامي مسمّرة، و"ياسـر" قـابض على يـد "فتـوح"، الـذي ينـاديني، وأنـا ملجـم بـالألم الـذى يعصرني، والعجز، أنّى لي أن أقف أمام جلال الألم، الذي يمزقني، ويجعلني كالبعوضة؟! إن دخلتُ؛ فلن أقدر على التحدث، والولوج في حضرة الألم، يتأوه "فتوح"؛ فأطل بجذعي، وأختلس النظر إلى رقدته، أشار "فتوح" بأصابعه المهترئة ناحيتي، وأنا أخبئ جذعي:

- يكرهني يا ياسر، وأنا..

حين تأوه "فتوح"؛ لم أطلّ بجذعي، ولم أختلس النظر إلى رقدته، و"ياسر" في حضرته بجوار رأسه.

ميراث الفتنة.. بائعة الخضار، والولد

في أكثر الأحيان؛ يقوم "فتوح"من رقدته، داعكًا عينيه، ماسحًا إياها بإصبعين مبلولين، وراشفًا بعض الماء المتبقي في الإناء الفخار، وهابطًا بسرعة.

كانت زوجة العسال حين تراه تتمايل أردافها، وتنادي بصوتها الرخيم الوخم على الطماطم والخضار، وحين يلمحها تفتح الدكان يقوم سريعًا، مخلفًا وراءه دخان نرجيلته، ومظهرًا لها كل النخوة والشهامة، يساعدها في جلب أقفاص الخضار، ويعرضها على قارعة الطريق، وهي تتمايل، وتلقي عليه غزل الصباح الرطب، ثم يبدي استعداده الخرافي في إلقاء أناشيد الصباح المرتلة ترتيلاً منغمًا، يلحس القلب، ويجعل الجسد يرتعد صبابة، ووجدًا، ولهفة إلى ليل.

في أكثر الأحيان؛ يقوم "فتوح" من رقدته متسللاً، داعكًا عينه، وماسحًا إياها بإصبعين مبلولين، وراشفًا بعض الماء المتبقي في الإناء الفخار، وحين يراني على غير العادة واقفًا أمامه – كتمثال – في المرحاض يتمتم – أحسبه دعاء الصباح – فأرهف سمعي، ربما يحدفني بصباح جميل، أو تحية، أو لمسة على فروة دماغي، أو مصروف يقيني شر الطريق الطويل، أو حسد الزملاء، لا يلقي لي بالاً، ويعتريه عبوس، وحركة نشطة، فأتمتم كتمتمته – يحسبه دعاء الصباح – فيرهف السمع، لا يسمع إلا صهيلاً مشوشًا،

فيمضي سريعًا، أدعو أن ينجّيه من عثرات الطريق، وأقلّها شوكة، ومن المنزوين في انحناءات، فيطلعون بعد اختفاء.. شاهرين المُديات اللامعة في وجوه الغلابة، أدركني الذعر، حين أيقنتُ أن الأذى ليس له كبير، قذفتُ بجسدي كله من النافذة، وقلتُ بصوت ضعيف:

- امش جنب الحيطان.

لن يسمعني، ولن ينفذ نصيحتي، هرولته ظاهرة وهو على مشارف انتهاء شارعنا المؤدي إلى الحانة، آه.. يا لك من ملعون! تترك كل شيء لأجل هذه البائعة، وتنصت دائمًا إلى زبائنها، وتراوغهم في سعر أزيد من التسعيرة، لتحصل على رزق وفير، وقدُّ أسيلُ في نهاية الليل، وتحرق بواسطة النرجيلة تنهداتك، وأشواقك، وتفرح حين تغمز لك، وهي لا تخجل أن تناديك علانية لمساعدتها، والخروف زوجها قاعد أمامها، تاركًا الذباب يحوم حوله، فهو في حلاوة، ومياعة النسوة اللاتي يعرفن سرّ شبق الرجال، ولهاثهم المستمر.

يقال إنه أصلع – وقد رأيته بأم رأسي – أحمر الخدين، متوسط القامة، واللحم يكسو عظامه بوفرة، يرص الحشيش على نرجيلة الحشاشين في الموالد، والأفراح، وأسابيع المواليد الجدد، ويرقص بخلاعة أمام الراقصات المستوردات من أماكن الفجور المشهورة، وكانت الراقصات ينخطفن علنًا للأقوى، حتى تلتحم ذوائب الخاطف والمخطوف، كان يحاول أن يفتدي الراقصة

بنفسه، فيكون من نصيب المتلهفين على الراقصة، ومن لم يحصل على اللحم؛ فليغرق في المرق، وكانت الراقصة تعرف معنى الجميل، فتكافئه في نهاية الأمر بأن تقّبله على تضحيته الجليلة، وتضربه في مؤخرته بمؤخرتها اللينة، وتعطيه نقودًا، وتدعوه للفرح القادم.. في قرى يعرف هو أسماءها، فقد أصبح من أفراد جوقتها، وعزيزًا على قلبها البحبوح.

صَبَرَ "العسال" على مهنته مع الراقصات، وعانى أشد المعاناة، حتى بدت سيرته وردية كوجهه الأحمر.

ظلّ "العسال" جربًا يخافه الناس حتى زبائن زوجته، وتبدل حاله، وكان "فتوح" يدخن النرجلية دومًا ساعة العصاري، وعيناه ترمقان العسال وزجته، وقد خلا الدكان من الزبائن التي تملأ عينيه، وتجعله نشوان حتى يدخن الحشيش مع أصحابه ليلاً، تودد "فتوح" إلى العسال وزوجته علنًا.

يقول الناس: ما عنده دم.. جبلّة!

أصمّ "فتوح" أذنيه، وأدرك أن الناس تحترس منه بسوء الظن، تقوقع أيامًا قليلة بداره حتى هدأت الحالة.

"العسال" وزوجته الآن يراسلانه في الخفاء، حتى أن زوجة العسال ذات مرة – أذكرها – جاءت إلى هذه الدار، وطرقتها طرقًا خفيفًا، حيث كان الوقت متأخرًا، وليلاً، فتحتْ "زكية" الباب، وقالتْ:

- ادخلي.

وكانتْ قد سمعتْ كلامًا أوسخ من وسخ الآذان، وعملتْ لها شايًا، ووضعتْ لها طعامًا من بقايا طعامنا

- خير.

- خير إن شاء الله.

وخرجتْ "زكية" تملأ كوز الماء، قالت زوجة العسال لفتوح: {.....}، وخيّم الصمت لمّا دخلتْ "زكية". توجستْ "زكية"، وتلهفتْ لمعرفة زيارتها المفاجئة.

- خير يا أختي!

- العسال مريض، والوقت متأخر.

تسربل "فتوح" بصوفه، وترك رأسه عاريًا، خرج وزوجة العسال بجواره ملتصقة، قال لـ"زكية"، وقدمه بالشارع:

-...أتأخر

لم تسمع "زكية"، لكنها هزّتْ رأسها، وحين أطلّتْ من كوة الغرفة ارتابتْ، الأثير يحمل ضحكة "فتوح"، فحلفتْ أن العبرة بالنهاية، ومن يعمل في الخفاء لا بد وأن يعشق الظلام، وستعلن الأيام بركاته في وضح النهار.

يتقابل "فتوح" مع صديقه "رفاعي"، يجتمع الأربعة، وضحكهم يغشى الحارة ليلاً، ويمزق سرب المتهكمين، استلطف "العسال" "رفاعي"، والحوارات جانبية وملتهبة، وكان "فتوح" يلبي طلبات "رفاعي".. من فاكهة، وحشيش، ومصاريف جيب، حتى لا يملّ من "العسال".

خبـثْ الضحكة قلـيلاً حـين فـارق "رفـاعي" الجماعـة، والحـوار الجانبى بين "فتوح" وبين زوجه العسال ملتهب، والخوف فقط من قنوط "العسال" نفسه، وحين لامه بعض الناس قال "فتوح":

- اختاروني، واخترتهم.

- السمعة كنز.

أعتقـد أن لفتـوح ريعًـا، أو نصـيبًا مـن البيـع والشـراء؛ ليعمـر يافوخـه بالشـاي، ويـدخن التبغ، أغلـب الظن – وهـذا ما أصـدقه، وتؤكده بعض الشائعات – أن البضاعة مقسمة على ثلاثة في رأس المال، والربح.

انتفختْ بطن زوجة العسال. "وفتوح" يعدّ لها الأيام، والعسال يضع كل يوم قرشًا في حصالته، الفرحة متوجسة في عيني "فتوح"، وقد سألته زوجة العسال:

- طلباتك؟!

رد العسال:

-لا اعتراض على أمره.

وكـان "فتـوح" سـارحًا في ملكوتـه، يرسـم أشـياءً مـن ذاكرتـه، وتلعثم فمه بأمنية:

- آه.. ولد.

- يحمل اسمك.

جاءها الطلق مؤكدًا نبوءة "فتوح"، ونثر "العسال" كل ما ادخره في عمل طبيخ معتبر.

الشائعات تتوالد، و"فتوح" لا يكترث، وزوجة العسال ترضع وليدها بحنان، و"العسال" يبيع للزبائن بالتناوب مع "فتوح".

قبل دخول الشتاء؛ طلبتْ "زكية" من "فتوح" – اضطرارًا – حطبًا لتعريش الغرف المنورة، ركب رأسه، ولم يلبِّ طلبها في حينه، إلا حينما أشار على زوجة العسال.

كانت "زكية" تربط حزم الحطب، وأجرّه أنا و"ياسر"، وأحيانًا زوجه العسال، و"فتوح" يستلم الحطب، ويفرشه على الغرف المنورة، حين انتهينا من حمل الحطب؛ كافأتنا "زكية" بقرش لي ولياسر، ودعكتْ جسدينا بالصابون الذي يحرق العين، وألبستنا ملابس مغسولة ونظيفة، قال لي "ياسر" على مرئى ومسمع من زكية – وكان قد تعلّم سحب الولد المخنث إلى الخرابة، ويلعب معه عريس وعروس – كلامًا عن "فتوح"، الذي حضن المرأة من خلف، وناما – على الحطب – من الضحك، ومن التعب.

اغتاظتْ "زكية"، وهاجتْ، نفرتْ من كل شيء، وكادت تحرقه بالنار، سحبتُه، وحكى لي.

تذكرتُ، وحين تذكرتُ كان الزمن قد مرّ، والشائعات قد خفّتْ حدتها، واندثرتْ، وأصبح الجميع يدورون كالبهائم بحثًا عن الرزق، و"فتوح" ما زال جالسًا في الحانة يداعب زوجة العسال، ويساعدها في حمل أقفاصها، وهي تتمايل، وتلقي إليه غنج الصباح الرطب، والطفل المسمى على اسمه يلعب في حجره، ويدغدغه، أدركتُ أن الولد محظوظ، محظوظ "فتوح".. فتوح الصغير.

كلما مررتُ؛ أحاول أن أتحقق من سحنة الطفل المحظوظ، حتى أدركتُ بفراستي أن قسماته تشبه إلى حد كبير قسماتنا، توجستُ، فربما يقاسمنا ميراثنا، والتاريخ هو الشاهد والبائعة، وربما تنقلب الموازين، ونكون جميعًا مخطئين.

❊ ❊ ❊

قِربَة مخرومة

تُوقد البائعة سراجها في الشارع؛ فتلتم النسوة، ويزبدن من أفواههن ما تعجز عن فهمه، أو تجد له معنى، أو صدى، أصوات مختلطة، جعجعة، بقبقة، خوار، هسيس، حركة نشطة، ويحوط البائعة المشترون من الرجال.

حين تطفئ سراجها، ينزوي الرجال والنساء إلى الجحور، يتكرر كل ليلة هذا الصخب حين يكون الدكان مفتوحًا.

استوحش "فتوح" رقدته، وفي فراشه يتقلب كالمجنون، ويحادث وسادته التي يضمها دومًا، هو الآن لا يملك إلا أن يحضن وسادته، وزوجته "زكية" لا تعاشره منذ فترة طويلة حينما سمعتْ وتأكدتْ من علاقته ببائعة الخضار، وابنها الذي سمي على اسمه.

يأكل "فتوح" بسرعة، ويجلس أمام الدار حتى تفتح البائعة دكانها، ويعمل نظره حين تغدو، أو تأتي، والمشترون لا ينقطع سيرهم، ويتهامسون أيضًا مع البائعة، كل فترة يتزحزح قليلاً.. قليلاً، حتى يصبح بجوار البائعة، ويتمسح بها كقطة، لمحه "حامد" مرات عديدة {أعتقد أنه يفكر في خلوة معها، لن ترضي، ولم لا؟} هكذا كان يفكر "حامد"، الذي صرف هواجسه مُكرهًا.. لكنها عادتْ بقوة، لمّا بدا له الأمر جليًا، ومخيفًا، حين لمح "فتوح" يجالس البائعة، يتودد، ويلقى ما في جعبته، يوشوشها، ويلقي في روعها حميته، ورجولته، لام "حامد" نفسه، وأدرك أن الظن لا يغني الآن.

تناوب "حامد" و"فتوح" الجلوس مع البائعة، حين يكون "فتوح" جالسًا مع البائعة؛ يناوشها "حامد"، حينئذ؛ يقوم "فتوح" متمتمًا، ولاعنًا، والبائعة تضحك بدلال:

- ما أنت قاعد يا عم فتوح.

ولمّا يجد "فتوح" "حامد" يداعب البائعة؛ يتسمّر مكانه، وينظره شذرًا.

في الليل؛ يترك "فتوح" باب غرفته، ويعرّي نفسه، ويتحسسها، رأى "فتوح" "حامد" واقفًا علي باب غرفته فستر نفسه، وقذفه بوسادته، تريث "حامد" في إعادتها، والسخط ظاهر على جسد "فتوح" المرتعش {أعرف يا فتوح أن للجسد طقوسًا، فليجتهد كل منا حتى يصيب راحة جسده}.

قام "فتوح" من رقدته متأخرًا على غير عادته، وألقى في وجه "حامد":

- صباحك زفت.

ودخل المرحاض، بعدها بقليل سمع "حامد" صرخاته المتقطعة: آه.. آه {لو يجاهر برغبته؛ فلن يسلم هذه المرّة، فزكية من أمامه، وأنا من خلفه}

قالت "زكية" لـ"فتوح":

- عايز إيه من البياعة؟!

- مفيش.

رد "فتـوح"، والنوايـا ملـك أصحابها، والمخبـوء لا يظهـره إلا الزمن، والرغبة العارمة، معذور "فتوح".

لم يملك "حامد" امرأة في حياته، ومواجهته مع "فتوح" جعلته يخـوض في الممنـوع، ولا يمكنـه التراجـع، ولا يعلـم طريقًـا جيـدًا لمعاشرة امرأة، وقد انقطعتْ أسباب "فتوح"، وجعلته قاعدًا، ناظرًا إلى "حامد"، الذي دائمًا ما يردد.

- شبعت من الدنيا يا فتوح.

- أنا عارف نفسي.

هكذا كان الحال. رغبة، ورغبة مضادة، والزمن كفيل بتوحيد الرغبات.

بـرغبتهم الأولى وإحساسـهم بالفرحـة، والـونس، كـان عيـال البائعـة يتلهفـون على جلـوس "حامـد" بجـوار أمهـم، التى كثيرًا مـا كانـت تفـرّ مـن تحـت يـده مكسـوفة مـن عيالهـا، يشـدّها "حامـد"، فتجلس.. نصفها على جسمه، ونصفها الآخر على الكنبة، وتفرّ منها ابتسـامة مطبوعـة دائمًـا على وجهـا، سـاعتها؛ يحـاول "حامـد" أن يُسكتْ ارتعاشـة شـفتها، يلمح "حامـد" العيـال فيرتعش، ويـنكمش على نفسـه قلـيلاً، ويعطيهم قروشًـا قليلـة، لكنهم يخرجـون بتلكؤ، يناوش العيال بعضهم البعض، ويتلصصون بعضًا من الوقت، ثم يجلسـون بصحن البيـت، ويقلّـدون زفـة عـروس شـاهدوها اليـوم، يندهش الناس من فرحتهم المباغتة، ويتلصصون، ومن ثم يضحك العيال عاليًا:

- تعالوا الفرح.

- فرح مين؟!

- فرح ماما، وعمي حامد.

مجبرة كانت البائعة، تبيع كل شيء حتى الابتسامة.. لكنها أبدًا لم تجرّب تلك الرغبة اللعينة المسماة بالاختيار، بعدما أحسّتْ بذلك الصراع الخفي بين "حامد" "وفتوح"، وأدركته، هي وحدها القادرة على حسم هذا الصراع، تلك الفكرة أعجبتها، وكان الجسد – مرغمًا – قد دخل في تلك اللعبة.

بعد العِشاء؛ ارتمى أولاد زكية بزوايا مختلفة علي الحصير المفروش وسط الدار، وقد انتفختْ بطونهم من "فتّة العدس"، وناموا، و"فتوح"ممدد علي طرف الحصير، واضعًا تحت رأسه مسندًا، ناظرًا لحامد الذي ينظر إليه – أيضًا – خلسة على فترات متقطعة.

- الشاي.

قال "فتوح"، وأغمض عينيه.

قامتْ "زكية" تغسل الصحون، وركنتْ الطبلية على الفرن، وأتتْ بقصعة، ووضعتْ القوالح بها، وبعض الخشب، ورشّتْ فوقها بعض الجاز، وأشعلتْ النار، سعل "حامد "من الدخان، فقام، وفتح باب الدار، ونظر إلى بيت البائعة.

- الدنيا برد يا ابني.

قالتْ "زكية"، وتنهدتْ، ونظرتْ لعيالها، ثم غسلتْ "كنكة" الشاي، ووضعتها على جمرات القوالح والخشب.

قام "حامد" مرّات عديدة بلهفة إلى باب الدار، وألقى نظرات على بيت البائعة جمالات، وعاد، نظراته زائغة، وأطرافه مرتعشة، يفرك يديه دون أن يدري، و"فتوح" يبص له من تحت "لتحت"، و"زكية" تقول لحامد:

- يا ابني وراك أيه؟!

لم يرد "حامد" على "زكية"، وظلّ صامتًا، يداعب أفكاره، فجأة تزحزح "حامد" بخفة خارج الدار، وزكية تمد يدها "لفتوح" بكوب الشاي، التفت "فتوح" بسرعة ناحية "حامد"، الذي انحرف قليلاً ناحية اليسار، وانكبّ الشاي على الحصير.

- سرحان في إيه يا راجل؟!

لم يرد "فتوح" على "زكية".

- خير إن شاء الله!

قالتْ "زكية" لنفسها، وقامتْ تبحث عن خرقة قديمة، تمسح بها الحصير.

أيقن "فتوح" شيئًا، وصدّق إحساسه، وخرج وراء "حامد"، ولمحه يدق باب البائعة "جمالات" دقًا خفيفًا، ويناديها بصوت هامس، جسد "فتوح" بداره، ورأسه بالخارج يتابع ما يحدث، نظرتْ البائعة يمينًا وشمالاً، واطمأنتْ، وجذبتْ "حامد" بسرعة، وأغلقتْ بابها.

لبستْ "زكية" هدومها السوداء، وطرحتها، وسارتْ حتى باب الدار المقفولة بجسد "فتوح" الآن.

- واقف كده ليه يا راجل؟!

لم يرد، لكنه أزاح جسده قليلاً، ورأسه ما زالتْ بالخارج، بصعوبة خرجتْ "زكية"، وراحتْ لحميدة.. أختها الكسيحة التي تزورها يوميًا بعد العِشاء.

أغرقتْ البائعة – جمالات - "حامد" بأشياء كثيرة لم يرها من قبل، وكان فرحًا بها طالبًا المزيد، وعلى رجولته رشّتْ – بحب – أنوثتها العفية المستترة عن عيون الناس، وعن زوجها، شهدها "حامد" متوهجة كالحياة، أو هو تصور ذلك، كان العناق توحدًا، والتلامس رحيقًا للحياة، ومعنى.

(هذه اللحظات مسروقة من الحياة، التي لا تجود إلا بالملل، والرتابة، نعم، اللحظات المسروقة تواصل، ومعنى، ومصير محتوم لكل منا) كان "حامد" شاردًا يفكر في هذه اللحظة التي لم يعشها أبدًا.

على باب البائعة وضع "فتوح" أذنيه الكبيرتين على جدار بيت البائعة، وأرهف السمع، وعضّ على شفتيه

- طيّب.

قال لنفسه، ومشى في الشارع، ناسيًا فردة من "بُلّغته"، وخبط على أبواب كل البيوت التي استقبلته بدهشة، وريبة:

- خير يا عم فتوح!

- حامد مع جمالات في بيتها.
- أعوذ بالله!
- باين عليه ابن حرام.
- مش قادر عليه يا ناس! أعمل إيه؟!

رد "فتوح"، ومضى مسرعًا لداره، جسمه بداره، ورأسه بالخارج.

لبستْ النسوة هدومهن على عجل، والرجال أمسكوا فروع شجر ناشف، ومناجل، وأسياخ حديد، ونسوا أنفسهم، وساروا حفاة، حتى وقفوا أمام دار البائعة.

أحسّ الأطفال بحركة متعجلة، وزعيق، فنفضوا عن أنفسهم نومًا ثقيلاً، وأمسكوا جلابيب أمهاتهم، وهم يمسحون عُماص العين الناعسة.

الشيخ أحمد – الأعمى – هو الوحيد الذي تأخر قليلاً. نادى على أخيه الصغير الذي رجع إليه في الحال:

- أَيْوَه يا أخويا.
- يمكن يكون ملعوب!
- دلوقت نشوف.
- يارب سترك!

قال الأعمى، وتأبط أخاه، وسار ببطء، حتى وصل إلى دار البائعة، وركن جسده على الجدار، ثم وضع أذنيه على باب البائعة، وقال:

- مفيش حد يا ناس!

لكزته "خضرة".. جارة البائعة، التي تعاركتْ معها منذ يومين فقط، وكانتْ خناقة لرب السماء، وقالتْ:

- اسكت يا أعمى.

- أعوذ بالله من لسانك!

تمتم الأعمى بكلمات لنفسه، وانزوى برأسه للناحية الأخرى لاعنًا الحريم، و"خضرة" بالذات.

- ياما تحت السواهي دواهي.

قالتْ "خضرة"، ونظرتْ للخلق الواقف.. المكتسي بالصمت، قطعتْ "خضرة" صمت الجميع، وقالتْ بعزم صوتها:

- اطلعي يا فاجرة.

ووشوشتْ ابنها بكلمات يقولها مع الأطفال الموجودين الآن.

سمع "حامد" والبائعة صخبًا شديدًا، وشتائم مقرونة باسم كل منهما، وقبل أن يخطو "حامد" الخطوة الأولى من دار البائعة لشارعه المليء بالنسوة والرجال؛ رأى البائعةجمالات – التي كانت في حضنه منذ قليل – قد ارتدتْ على عَجل ملابسها بالمقلوب، ابتسم "حامد"، وكتم ضحكة كانت تداعبه بقوة، بين نداء الشارع وبكاء البائعة يتأرجح "حامد"، وأولاد البائعة ارتموا في حضنها خائفين، و"جمالات" تلطم خدها المتورد من لحظة فائتة، صراخ بالداخل، وصراخ بالخارج، تقدم حامد خطوة؛ فأمسكتْ "جمالات" ذيل جلبابه بقوة، فمال برأسه إلى أسفل.

- يا خراب بيتك يا جملات! العمل إيه دلوقت يا حامد؟!

لم يرد "حامد"، وجلس بجوارها، يحاول أن يلم فضيحتها بيديه؛ فضمها مرغمًا، وقال:

- أنا مش فاتح لهم الباب.

لم ترد جملات، وظلّتْ تلطم خدها.

ابن خضرة، وأطفال الشارع؛ رددوا بصوت واحد {يا حامد يا وش القملة.. إش خلاك تعمل دي العملة} وجملات تسد أذنيها بجلبابها الذي انشلح.

كلّم "حامد" نفسه {الظاهر مفيش فايدة} واستجمع جسده المرتعش، ونقل خطواته الثقيلة، وفتح الباب، ولمّا أطلّ برأسه للشارع والناس، دفعته البائعة بكل خوفها، وقفلتْ بابها بسرعة، أمسكه الناس من هدومه، ولكزه بعض الواقفين، ورفع الباقون أياديهم بما معهم، فرفع "حامد" يديه، وحاول أن يحمي رأسه، وكانتْ قدمه مسمّرة في الأرض، وعيناه الزائغتان استقرتا على داره، ولمح "فتوح" يسد مدخل الدار، رافعًا ذيل جلبابه الدمور والمتسخ بأسنانه الصفراء، ظاهرًا سرواله أبو "دكّة"، حاول "حامد" أن ينزع رجليه بخطوة، لكنه لم يقدر، نظر "حامد" مرة أخرى؛ فتقابلتْ عيونه بعيون "فتوح"، التي ظهرتْ بها لمعة غريبة، لم يرها "حامد" من قبل.

- شفت يا أعمى الفاجرة.

قالت "خضرة" للأعمى الذي لم يرد، ونغّمتْ "خضرة" كلامها {يا جمالات يا وش القملة.. إش خلاك تعملي دي العملة} والأطفال يرددون وراءها بحماس، والرجال يتهامسون فيما بينهم.

ظلّ "حامد" مطأطئ الرأس، ولمّا ارتختْ الأيادي الممسكة بهدومه، خطف نفسه بسرعة.. مهرولاً إلى ناحية الموردة بجوار شجرة السنط الوحيدة، تاركًا "فتوح" والناس، والأطفال جروا خلفه، يزفونه حتى اختفى.

"ياسر" الوحيد الذي استلقى علي ظهره يداعب النوم، لكنه لم ينم، ولمّا سمع اسم "حامد" يتردد؛ قام مسرعًا، وخرج للشارع الضيق، ولمّا رأى الناس تلتف حول "حامد"؛ كلّم"فتوح" الواقف على الباب. نهره "فتوح"، وأسكته بصفعة علي وجهه، وأمره بالنوم مثل إخوته.

انصاع "ياسر" لفتوح برهة، ثم غافله، وتسلل مرة أخرى للشارع، وهرول إلى أمه زكية، التي خطفتْ الطريق، وصلتْ "زكية"، واللّمّة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكانت قد سمعتْ كلمات قليلة في بداية الشارع، ولمّا سألتْ آخر الواقفين، أشاح بوجهه، وقال:

- ابن حرام.

لم ترد، وامتعضتْ، ونزلتْ دموعها على الخد الوارم قليلاً، وكان "فتوح" مستلقيًا على الحصير، شاخصًا ببصره على عش عصافير بالسقف المُعرش بالبوص، سألته "زكية"، لم يرد، وابتسم لها، ولمّا وجدها تلطم خدها قال:

- ابنك فضحنا يا زكية!

- هو فين؟!

- راح في داهية.

وقهقه "فتوح" آليًا، فأدركتْ أنه السبب، صمتتْ لحظة، وعلّقتْ عينيها على "فتوح".

- أوعي تلوميني يا زكية. لومي نفسك. كان لازم أعمل كده.

- ليه يا فتوح؟! ده كان راجل البيت، وراجلي!

- واحد فينا بس.. هو راجل البيت ده.

- طول عمرك قاعد وبس، حرام عليك! ضيعته، وضيعت العيال، وأنا صحتي على قدي.

- أنا مش شُرابة خُرج، كان لازم تِعدلي بينا.

- خلاص.. ما عادش ينفع الندم.

- اسمعي كلامي.

- حاضر.

وبكتْ، ولمّتْ عيالها في حضنها.. راغبة في الدفء، والونس، والأمان.

لم ينم "ياسر"؛ لمّا وجد "زكية" قد بللتْ هدومه ومكان نومه بالدموع، و"فتوح" قد ارتمى على سريره النحاس القديم.

قرب الفجر بقليل؛ قام "ياسر"، وبصّ على "فتوح" المتقلّب في نومته، جذبته"زكية" ليُكمل نومه، لكنه همس:

- أنا عارف مكان حامد.

- صحيح؟!

هزّ رأسه، وعلى أطراف أصابعه، نقل خطواته الصغيرة، وفتح باب الدار، و"زكية" تحرسه، وتلفّه بنظراتها – خوفًا من الظلمة، ومن البرد – حتى اختفى.

بعد انتظار قليل، غلّفه سوء الظن والخوف، لمحتْ "حامد" و"ياسر" يسيران بتؤدة، وبدون صوت حتى حُضنها.

- ليه عملت كده يا ابني؟!

قال "حامد" كلامًا مختلطًا غير مفهوم لزكية، لكنه يعرفه، ويحسه:

- الحلال قليل، وكلنا عبيد، ومسروقون، ياه على الدنيا!

وسَكَتَ فترة، بعدها لملم بعض ملابسه، وبعض كتبه، وألقى نظرات كثيرة على كل ركن، وعلى "زكية" والأولاد، ومضى متخفيًا دون وداع.. في ظلمة الكون، وظلمته، و"فتوح" مبتسم، يتقلّب في رقدته.. سعيدًا بوسادته، التي لا تنطق هذه المرّة.

بعد صلاة الفجر قام "فتوح" نشيطًا على غير عادته، وعلى أطراف أصابعه، سار حتى دار البائعة، وخبط على الباب خبطًا خفيفًا.

- جمالات.. جمالات

مسحتْ "زكية" دموعها، ونفّضتْ عنها كل ما حدث بالأمس، وسارتْ في بداية يومها الجديد – وبدايته مؤلمة – ولمّا وصلتْ إلى الباب؛ قالت:

- رحلت هي كمان يا فتوح! تعالى.

لكنه لم يرد، وسار بصعوبة، حتى وصل إلى غرفته، واستلقى على سريره، ساعتها فقط، أدرك أنه قد شاخ، وأن الرغبة قد سرقته.

❊ ❊ ❊

٣

اخلع نعالك، ثم انتظرني

ليل رحيله

حَمل "حامد" كتبه، وهدومه، وفضيحته – إن جاز تسميتها هكذا – مع البائعة، وقد قالت، وهي تستند إلى صدره برأسها المسلوت من عصابته، رافعة الراية البيضاء، وجلبابها.

- أنا ملك جوزي.

تضاحك، وحاول أن ينسيها أمره، وذِكره، وهو يلثم فمها.

❊ ❊ ❊

تلصص "حامد"، وحمل شوقه وما استطاع، رأى "زكية" والأولاد، ورأى "فتوح" لا يشغله شاغل غير التقلب على الفراش.

ترك "حامد" كل شيء، عمله، بيته، عُمره الذى أنفقه بين مزابل وحارات بلدته، وصقيع يحتل كيانه، ويأكل ما تبقى منه.

وقف "حامد" متجمدًا، وحائرًا، حين لمح بعض العيون الساهرة، وهي تتلصص، وتموت في تلصصها {فلتجعل – يا حامد – موتك أمام عينيك تشهده}، وسار بطيئًا، ووأد قلبه الجافل تحت قدمه، وقد كانت رغبته عارمة في قضاء ليل رحيله مع البائعة، وكان يمكن له أن يبوح، ويظل قابعًا، مضاجعًا لها، الأبواب – الآن – في ليل رحيله مغلقة، جفونه أرختْ ليله، وليل الناس، فتحسس جيبه، ومضى.

❊ ❊ ❊

انكشف الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فانكشفتْ سوءته، وهو ملقى بجانب النيل.. بجوار شجرة الصفصاف العتيقة، والأغصان تتدلى بدلال، تشرب بملء كفيها، درأ سوءته في بنطاله، وبخفة، حتى لا يلمحه شرطي؛ فيسحبه بفعل فاضح في شارع عمومي، والنيل شاهد، والأغصان يسمع كرعها، وصاحب الجلالة يتماوج.

ألقى "حامد" بجسده الثقيل الآن، وطارحه بالأحضان؛ فكان جزءًا منه، والماء يدغدغ جسده، اختبر قوته، وتعاوم ضد التيار.

سار "حامد" لا يلوي على شيء.. غير أن يتوه؛ فلا أحد يعرفه هنا، ميلاده الثاني متعثر، والوجه يغمره البياض، الآن يتقافز "حامد" كالضفدع في الشوارع، التي اكتظتْ باللحم الأبيض والأسود، حتى لفحته الشمس بلهيبها، وكلّتْ قدماه من المسير، فاستباح لنفسه الجلوس أمام الدكاكين، يهشّه أصحاب الدكاكين، فيفرّ مرغمًا، يبحث عن مكان يضمه، هو نقطة متماوجة في الزحام، وحين ينتهي السوق اليومي سوف يسعد بالشوارع، والسكينة، طاف الشوارع، والميادين حتى العصر، جلس – مهادنًا جسده – يجرع الشاي.

القاهرة – واقفة على قدم وساق ليلاً ونهارًا – تغوص في الأنوار، والنيل يضم العاشقين في سلته، ويضيء مشاعرهم، ويجعل القبلات قصرًا للشوق، ومرفأ للحلم الساحر، والرضاب أشهى من العسل، هكذا تصور حامد.

لا شيء ثابت مع سيره، وهو يتجول، يقف – فقط – مذبوحًا أمام محلات الخمر، وتقاسيم الأنثى، لا أحد يعرفه، ولا يعرف أحدًا، والأجساد تسير إلى غايتها بسهولة.

هرب من الجوع بالفرجة، كان يمر أمام صناديق القمامة، ينظر للقطط التى كانت تموء، وتتعارك، هو فقط كان ينظرها.

دار بعينيه على أحد يعرفه، والخيبة بادية على تقلصاته وحركاته، لمح "مطاوع"، هرول ناحيته، والتصق به.

في آخر الليل؛ والألسن قد تدبرتْ مكانًا للصمت؛ جرّه "مطاوع"، وكانت الأجساد قد التصقتْ في البداية، وسرعان ما تخبطتْ أقدام "حامد"؛ فتأخر خطوتين.

تتأرجح حياة "حامد" الآن بين أقدام "مطاوع"، الخطوة سرّ، والمسافة زمن للجسد الموجوع بفعل حكايته مع ناسه، جسد منسى في كل الأزمنة المعروفة، حامد – فقط – ينظر لتلك الأقدام المفلطحة، والحذاء الأسمر الكالح، الذي ينقر أرض الأسفلت.

أمام الشقة وقف "مطاوع"، نقر شراعة الباب، الذي ينفذ منه ضوء أصفر باهت، وكان "حامد" على بَسطّة السلم، بينه وبين "مطاوع" خمس درجات من الرخام متآكلة، ثم وضع "مطاوع" المفتاح، وخبط الباب بقدمه، كان جسمه داخل الشقة، "وحامد" ما زال يصعد الدرجات المتآكلة، أطلّ"مطاوع" برأسه الصغير الأصلع، وزعق فيه.

الشقة أربع غرف، وصالة فسيحة، كراسي قديمة متناثرة هنا وهناك، وترابيزة صغيرة.. مدورة، تشغل مساحة الوسط، ارتعب "حامد" حين وجد ثلاثة وجوه مصوّبة ناحيته، قال "مطاوع":

- مساء الخير عليهم.

رد الرجل والمرأة والفتاة بحسٍّ واحد:

- أهلا يا مطاوع.

و"حامد" يعلن ارتيابه بوقوفه كتمثال رمسيس، جذبه "مطاوع" من تاريخه حين حدف تحيته، وأغلق غرفته، ووضع يديه على فم "حامد"، وقال:

- كل وقت وله أذان.

لم ينزعج "حامد" {فليكن الأمر كما يكون}.

صباحًا؛ تسلل "حامد" إلى الحّمام، قابلته الفتاة ببسمة؛ فألقى عليها التحية منعًا للإحراج، وكانت تجتهد في عمل الفطور على ما يرام، مضغ لقيمات قليلة، ونزل مسرعًا، تفحص المكان جيدًا، وثبّتْ فوق الشقة سحابة آتية من بلدته.

ليلاً؛ تجشم "حامد" مشقة الاقتراب، وعينا الفتاة لا ترمشان، فاصطنع خجلاً.. حياءً من أمها و"مطاوع"، ربما تكون من عائلته الكريمة، قطع"مطاوع" حبل صمته:

- لولا أمنا روحية.

وهو يضحك، وهي تضربه بدلال على صدره:

- ونسرين..

قالت روحية قبل أن يكمل حديثة:

- أنت ابني يا مطاوع. ربنا عوضني بيك.

فـأحسّ "حامـد" بطمأنينـة، أكملـتْ كلامهـا، وغمـزتْ بعينهـا لـ"مطاوع"، الـذي لمح ابتسـامة كانت غائبة في عبّها، وارتعش جسـد "نسـرين"، بعـدها ضـمّتْ روحيـة "حامـد" إلى العائلـة كمطـاوع، وابتسمتْ، فازداد "حامد" قربًا منها، ومن "نسرين"، وعينا "نسرين" لا ترمشـان، تبسـم "حامـد"، سـألته "نسـرين" عـن اسـمه، وأشـياء كثيرة أخرى، ردّ "حامد":

- أكل عيش.

- عارفة.. لكن.

وضحكتْ "نسرين"، وحاولتْ مسك يده، وعيناها لا ترمشان، ازداد "حامد" رعبًا من بدايته، وحاول أن يتخفى بالليل.

كـل البـدايات اختيـار، و"حامـد" – فقـط – هـو الـذي يمسـك النهايـات بـدون بدايـة لـه، يمسـك بيديـه المـوت والحيـاة، لكنـه لا يعرف.

ينزل "حامد" مبكرًا، ويعود متأخرًا، ومشاويره بين حانة ريش، والبسـتان، والأوبـرا، والأتيليـة، والوقـوف بـإجلال وتعظـيم أمـام محـلات الخمـر، والتشـوف إلى صـدور وأعجـاز النسـاء، حـين قابـل "حامـد" "مطـاوع" بالصـدفة تعانقـا جيـدًا، وألقـى أمامـه مـرارة العتاب، تأبطه "مطاوع" ومضيا معًا.

نطّ الدم، وصرختْ الفرحة في وجنتي روحية ونسرين فجأة، حين ألجمتهن مفاجأة حضورهما معًا، وعلى غير العادة، انزوى "مطاوع" بروحية يحدثها أحاديث جانبية، أشفق "حامد" على "نسرين"، والتصق بها، هو يخفف عنها، حين أحسّ بحرارة الالتصاق، أمسك يديها برهبة، وخلسة، سحبته إلى غرفتها، وفي عينيها لهفة يعرفها، وصدرها المتماسك قد تقطّعتْ به الأسباب، فتبرز، وانتفخ، خلعتْ أرديتها إلا غلالة شفافة، أطلّ بجذعه، وتشوف صاحبه، يخاف أن يلمحه، أو تزجره روحية، فيكون مصيره الخرائب، و"نسرين" تتمدد رويدًا.. رويدًا، والسحر الجميل يغلفها، قام جافلاً حين سمع خرير الماء، وهرول إلى غرفة صاحبه، أشار له "مطاوع" أن يستر عليهما بقفل الباب، لم يفعل، واستباح لنفسه فُرجة لم يرها من قبل، قام "مطاوع" وهو يعنّف "حامد"، وروحية تنفخ:

- المجانية خلاص انتهتْ!

خطوته الثقيلة تناوله لنسرين بغلالتها الشفافة، وبسهولة، وماء النيل يتساقط من جبينه، والارتواء ظاهر، وجلي في خد نسرين، قال لها "حامد":

- خل بالك من مطاوع.

وتركها هابطًا إلى الشارع، تاركًا باب الشقة مفتوحًا.

عاد "حامد" إلى الغرفة يحمل لون الإسفلت، ولون ماركات العربات الملاكي، وكانت "نسرين" على أريكته منتظرة، داعبها.. وقال

في نفسه: {فليكن أمري معها كما تريد؛ ما دامت تطيعني في نفسها بذلاً، وانقيادًا لأمري}.

بعد ثلاث ليال، طلب "حامد" من "نسرين" أن تخلي سبيله، وتقبل عوضًا عنه آلاف الرجال – ولهم ثقل ونخوة – فلم ترض، وازدادتْ تمسكًا به، راوغها، واستكان جسده للنوم، هي بجواره تدلك صدره، وتدق في جسده أنثى مرغوبة، لا تهدأ إلا بالوثوب عليها، ورشف ترياق ثغرها، طلب أن تهبه نفسها، وهبتها: {ليس لي الآن مهرب}، وطلب شهود زور على ذلك، فضحكتْ بدلال، قام يفتش عن شامتين التصقتا بجسمه، هذا آخر ما تبقى من آثار بلدته، عثر بصعوبة على برغوث وقملة، فحمدتْ "نسرين" الله، وقتلتهما حفاظًا على السرّ، وارتاحتْ نفسه قليلاً، لبس "حامد" نعله – ونعله جَمله، وركوبته – حتى أتى النيل، والخيط الأبيض من الخيط الأسود قد انكشف؛ فانكشفتْ سوءته.

للمرة الثالثة تخبره "نسرين" بحملها، فيمسك "حامد" جيب أبيها، وعقلها، ومشورة روحية؛ ويجهضها، تتمسك "نسرين" بعقاله {أعتقد أن لديها من الفراسة ما يؤهلها أن تصبح يومًا ما زوجتي}، حاول "حامد" طرد هذا الخاطر، وبعد أن تعافت "نسرين" أطلق في وجهها رغبة الرحيل.

- تعودت عليك.

لم يرد عليها.

- ارحمني، أنا محتاجة لك.

تتمسك "نسرين" ببنطاله، وهو يحمل جسده الثقيل، وخطوه، تبكي بحرقة، لم ير "حامد" هذه الدموع، ذبلتْ "نسرين"، ونشفتْ في الحال، وأبهره ذبولها، وماء عينيها المالح، تقبّل "نسرين" حذاءه – وهي لا تقوى على صلب طولها – وقالت:

- اعمل أي حاجة، لكن..

صِدقها يحزّ في نفسه، ويستبقيه، والشقة بمثالبها تستعطفه أن يستظل بها، حتى روحية تحثه بدمعتين، وهي تطيّب خاطر "نسرين".

- من ترك قديمه؛ تاه.

"روحية" فتحتْ جرحه، والصديد يتجمع من جديد في صدره.. بداية تسلله، وليل رحيله.

خرج "حامد" مسرعًا، والشطط، والشوق، واللهيب، جنود يطاردونه، وصل لاهثًا إلى النيل، ثم ألقى بنفسه، بين الماء والنار ولادة أخرى.

كان مبلولاً على الشاطئ، وقد سمع وهو في غيبوبته (الدنيا فيها كثير.. ربنا يستر على عبيده) و"حامد" لا يسمع خرير النيل، عاتبتْ "نسرين" أمها عتابًا مرًّا، انتشلوه من المستشفى بعد ما سمع "حامد": انتحار، يائس. بعد أن استفاق، قال "حامد" لنفسه: {لي رغبة عارمة أن أزور بلدتنا}.

على مشارف البلدة، استوقفته الريبة، وسوء الظن.

طـرق "حامـد" البـاب، والزغاريـد تمـلأ الشـارع، وجوانحـه. التصافح بشدة، والغبطة برجوعه؛ تؤكد أن للسلام معنى جميلاً. فتحتْ "زكية" بلهفة، لم تصدق، وارتابتْ، لما أفاقتْ، تحسسته بأناملها المرتعشة؛ لتأنس بوجهه، وشاربه، والقُبل تنهال على جسده، وعناقه لـ"ياسر" والأولاد لم يتحمله؛ فأجهش "حامد" بالبكاء.

وقف "فتوح" قبالة "حامد"، تشهّد "حامد"، ورغبته في عناقه أمر حتمي – لا يستطيع ذلك، إلا إذا فرد ذراعه – صافح "حامد" "فتوح" بحرارة، وتناسى أمره سريعًا.

انتهتْ الزيارة على خير، وتسلموا هديته، وعنوانه، واعتذر لسرعة رحيله {كان الله في عونك}.

❊ ❊ ❊

حملتْ "نسرين" أثقالاً على سُرّها {هي تقول ذلك} فلم ينفع معها هذا العلاج، بطنها تنتفخ، والفضيحة على الأبواب، "حامد" ليس له طاقة في هجرة أخرى، وابتداء آخر {هو يقول ذلك}.

في الثلث الأخير من الليل، يتقلب "حامد".. يحصي النجوم التي قد تلاشتْ، يعود إلى فراشه، و"نسرين" نائمة بجواره، دثرها "حامد"، وأحكم الدثار على بطنها، تنفستْ بصعوبة، وقامتْ فزعة، فدثرها بصدره، فارتاحتْ، وأحكم صدره وذراعه في عناق حار، وقال: خير إن شاء الله.

أثقلها الفزع، والانتظار، فأحكم "حامد"صدره، وذراعه في عناق حار، فارتاحتْ، وحكتْ له حلمها:

- كلب أسمر، يتمسّح كالقطة بصاحبه، وصاحبه يرمي له الفضلات، ويضربه، والكلب أنيابه ظاهرة.

هزّها "حامد"، ودغدغ جسدها، حتى غفلتْ، فنسيتْ "نسرين" أمر الكلب، وارتاحتْ. ثم قامتْ فزعة، فدثرها بصدره، ولم يحكم الدثار.

- أحلامك كثيرة اليوم. ممكن تولدي.

ما زالت "نسرين" مثقلة بالفزع، والانتظار، فدثرها "حامد"، وملح عينيها يتساقط على صدره، ويداها تجوسان في أنحائه، ففزع، لكنها أكملتْ حلمها:

- كرباجه على كتفه، يضرب واحدًا قُدامه، والثاني – يا عيني – موجوع من الضرب، ويقول: نسيت. لكن الوجع ظاهر.

كان الفجر قد كشح السواد، لم ينم "حامد" بقية ليلته، إمعانًا في تأويل، أجزم أنها أضغاث أحلام، فألقاها في سلّة مهملاته اليومية.

في يوم آخر، ألقى "حامد" التحية على روحية، فوشوشته أن "نسرين" نائمة، حاول "حامد" كشف وجهها بلهفة، لتهدئة نفسه بقُبلة، حتى يستره الليل، "نسرين" دامعة.. معها ورقة تحاول إخفاءها.. سلمتها له حين سألها، وأجهشتْ بالبكاء.. توجس "حامد"

(إعلان من محكمة كفر الزيات للأحوال الشخصية للمثول في نظر الدعوى المرفوعة من فتوح) ضحك "حامد" عاليًا، فتوجستْ "نسرين"، وهي تجوس بيديها في وجهه، بكى "حامد"، فعانقته، وارتاح قليلاً.

"نسرين" الآن على وشك الولادة، الولادة متعثرة.. والدكتور "ميخائيل" بشوش، والفزع يخرم أحشاءه.

- بنتان، وولد.. ربنا يطرح فيهم البركة، ومحبة يسوع.

عانق "حامد" الدكتور ميخائيل، وشَكَره {ربما يكون هذا هو التأويل}، قال "حامد" لنفسه، ونسي أمر الكلب، فقد شغله التأويل عن الدخول لنسرين، مرّتْ ساعات، وكان على طرف سريرها، داعبها قائلاً:

- ثلاثة مرة واحدة.. خلفة بأثر رجعي.

تبسمتْ "نسرين"، وحين علمتْ بموت البنتين؛ بكتْ.

- الولد يكسب.

قال "حامد"، فانفرجتْ عن نسرين ابتسامة الرضا.

لم يمرّ يومان، حتى قابلتْ "نسرين" ربًا كريمًا {ما هذا؟ إعلان ببشرى الموت}، وهرول "حامد"، حتى وصل قُدام النيل، ولم يستطع خلع أرديته، وماء النيل شحيح، أجهش بالبكاء متواريًا عن العيون المتلصصة. والدمع يصنع الدوائر مع الماء المتبقي، ويختلط مع مائه، قام حين امتلأ النيل عن آخره، وفاض على جوانبه.

أسرّ "حامد" لصديقه الدكتور ميخائيل برغبة سرية، وقام بالتوقيع على ما كتبه الدكتور، وخصاه الدكتور مرغمًا، بعدها حَمل "حامد" حقيبته، وترك لحمه الأحمر أمانة مع روحية، وسافر إلى الدلجمون. وكان "فتوح" قد قصّ رؤياه على زكية.. نفس رؤيا "نسرين".

❊ ❊ ❊

قاعة المحكمة مكتظة بالمتخاصمين، والمتفرجين.. أصحاب الأمزجة الحارة.. انتصبا كعيدان الذرة الرفيعة، حين سمعا اسميهما.

- أستسمحك سيادة القاضي.

قال "حامد"، وذهب للقاضي ووشوشه، ابتسم القاضي لمّا أعطى "حامد" له الكارنيه الخاص بعمله، أمر القاضي بإخلاء القاعة، و"فتوح" منشرح الصدر، باسم الثغر.

- طلباتك؟!

طلب "فتوح" مبلغًا من المال شهريًا (هذا هين، وواجبي، لو تنحى بي جانبًا، وطلب أكثر من هذا المبلغ، ما ترددتُ في الإجابة، ومحاميه – من أين لك هذا يا فتوح؟ - يمسك بعقال قضيته، ولا يخشى قولته: أنت، وما تملك ملكًا لأبيك).

- وأنت يا أستاذ؟!

- أنا.. آه! الطعام المتعفن في بطني، الراحة في.. في قذفه.

و"حامد" نظر لفتوح نظرة مملوءة بتاريخه الشخصي، والذكريات، ثم بصبص له، هاج "فتوح"، وهيّج المشاعر، بعدما شتم "حامد".

- مش معنى أنى كويس؛ يبقى غيري وحش.

قطع محامي "فتوح" الطريق على بلاغة "حامد"، وقفل حنك موكله "فتوح"، وقال:

- سيدي القاضي، ندخل في موضوع القضية أحسن لنا.

- آه، القضية!

وكلّم "حامد" نفسه {أعرف أنه ليس من حقي أن يكون لي ملك خاص؛ لأن ما أحصل عليه.. أيّا كان نوعه – حتى لو كانت غانية أختلي بها – لا أحصل عليه لنفسي.. بل لفتوح}.

- آه، القضية!

نظر "حامد" لفتوح نظرة تعني: الحقيقة، والمجاز معًا، وسار خطوات كأنها الدهر، حتى وصل إلى منصة القاضي، ووشوشه مدة، وسلمه شهادة الدكتور ميخائيل، وأوراقًا، وشريط تسجيل، ثم نظر ناحية "فتوح"، وكساه الدمع لأول مرة، ثم قال:

- واسأل حضرتك "زكية" وياسر والأولاد عن الحقيقة، احكم بما تشاء.

- رُفعت الجلسة.

(فتوح، كل المسرات أمامك، وكل شيء قد دُفع إليّ منك، ولا أحد يعرفني غيرك، ولا يعرفك غيري، وقد طويتُ صحيفتي منذ فارقتك متسللاً)

ألقى "حامد" نظرة أخيرة – وفتوح متسمّر – وقد اغرورقتْ عيناه، والرعشة بادية على أطرافه، وعناقه لفتوح في قاعة المحكمة أمر صعب، ووداعه له أصعب، وصوته الحقيقي يعلن، ويصرخ: شرط الخضوع؛ الحب، ومضى يبحث عن النيل. وصلصال بلدته يعلن رائحة العفن، ويختمر بدمعه، تذكر "حامد" لحمه الأحمر، فسافر مطمئنًا،لا يشغله شيء.

بعدها، تعرّى "فتوح"، وأيقن أنه يقبض الهواء، فشخص بصره، ولم يرتد طرفه، وأصبحتْ الأرض مسجدًا طهورًا، وصوته يعلو بعد صمتٍ {رد المقام} ويجهش بالبكاء، ويصمتُ مدة، فيعلو صوته بعد صمته {تزينوا للعرض} وملابسه رثة، وهيئته غبار، ويجهش بالبكاء، ويصمتُ مدة، ويعلو صوته بعد صمته {مكر النفس من حدّة الهوى} وقد حفر حفرة، فاحتلته، وانزوى بعيدًا عن البلدة، لا يحسّ ببرد، أو بحرٍ، واستقر بمثلث التقاء ترعة الباجورية والهاويس، والتقاء الماء يصنع دوامات هائلة، تُغرق المراكب، والسباحين، هدأتْ الدوامات، وتلاشتْ، حين استقر فتوح بهذا المكان، وأصحاب المراكب، والصيادون يجالسونه، وينادونه بعم الشيخ، ويعلو صوته بعد صمته {المكان مربوط بالسماء}

فيتعجب جلساؤه، ويستشعرون الرهبة، فيتباركون، ويتركون بجواره أشياء عزيزة.

علم "حامد" سيرة "فتوح"؛ فبنى له مسجدًا، حتى يأنس بحجيجه، وقد كانت كلمات "فتوح" قليلة، يعلو بها صوته بعد صمته، حتى حفظها جلساؤه، وندماؤه {الرضا موجود؛ لو كان الغضب عن علّة، واجد، وموجود. واحد، ومحمود. موجود.. موجود} وندماؤه يتعجبون من فصاحته، وخشيته الممزوجة بدمعه، حتى انقضى أجله في شتاء قارس.

يُقال: إن "فتوح" فارق البلدة. وأنه رجل خطوة، وحظوة. وأصبح من أعوان الخضر عليه السلام، وأن الطيور أكلته، ونهشته الكلاب، والذئاب، والثعالب، حين أقعده المرض.

لمّا وصل "حامد" خبر "فتوح"، عاين "حامد" المكان، وكان الدود يمشي في المسجد، ورائحة العفن بادية.

* * *

أقرضهم "حامد" – قرضًا حسنًا – يده مرغمًا، ونظرته تغوص مجبرة فيما تحت الثرى، وقد داهمه شعور بالرهبة، والتفسخ، فتقطّر الدمع، وتساقط.. حافرًا في وجهه بعض ما يعانيه، وكانت يده كبيت العنكبوت خاوية، وضامرة. كان الطفل الذى يتعلم أبجدية المشاركة يرفعها، ويخفضها كيفما شاء، ويضغطها بقوة فتؤلمه، ويصرخ، فتشتعل في قلوب الرجال كل النخوة المفقودة،

فيصافحونه بشدة، ويزداد ألمه، ويخالط قلبه الوهن، فيتصلب بقشّة، ويمسك جاره الفارد ذراعه، حين يثقله الهمّ، وينقره. يجلسه رجل قد رآه يتلوى، ويهوي، يرمقه الرجال، والصبية يتعلمون فيه المشاركة، فيندسون بين الكهول، وأسماعهم متصنتة، فيلقون في وجهه ما يسمعون بالحرف الواحد.. متلعثمين، ومتكبدين مشقة الحزم، والتجهم كأقرانهم الكبار، وينسلون مسرعين من الطابور الطويل فرادى، ومثنى، ويتجمعون دوائر.. دوائر. وعلى البعد تتضاءل رؤيتهم في عين حامد العامشة، والهواء رسول إلى أذنه، فيندفع الغضب في جسده، ويرعشه، ويضحك غير معلن ضحكته للقابضين على يده، ويردد بدندنة – لا يسمعها غيّره – أغنية.

كان الصغار قد وصلوا إلى مشارف الحقول الواسعة، وأياديهم تنتزع من الحقول ما يُؤكل، أو ما يُدخل في قلوبهم البهجة، زاغتْ عين حامد على ذيل الطابور الطويل كذقن الشيخ سعفان، فرأى ما يثلج صدره، ويحفزه في أن يظل صامدًا للنهاية، فقد شارف الطابور الطويل على الانتهاء، وكان بين الشيخ والرجل مسافة فرسخين، أو يزيد، فكان يتزحزح للشيخ الهرم؛ ليصافحه، ويمضي بعكازه.

في آخر الطابور الطويل شخص يشبه صاحبه، هو لا يجامل أحدًا على حساب مزاجه، وراحة باله، لا يمكن أن يتخلى عن مبدئه؛ ليصافحه، ويتحمل فوق طاقته ما لا يستطيع حمله أو

تكـراره {يمكـن. لا يمكـن. ولـمَ لا؟} فـرك "حامـد" عينيـه، وأوقـف الدمع القليل العالق – شفقة منه على نفسه – وكرر محاولته، لا شيء أكيد، حالفه الحظ أن رأى اختلافًا جوهريًا: يتوكأ على عصا، وقف "مطاوع" قبالته، وكان شيخ عجوز على مسافة فرسخين أو يزيد، تقوقع "حامد" داخل نفسه، و"مطاوع" يتفحصه، وهمس له بأشياء مضحكة، والعجوز يقترب، لمح "مطاوع" سؤالاً مُلحًّا في عين "حامـد"، والعجـوز يمـد يديـه البـاليتين لحامـد، سـأل "حامـد" "مطاوع" فجأة، فقال مطاوع:

- جابني مزاجي.

وهـشّ "مطـاوع" "حامـد" بعصـاه، وضـربه بهـا، وطلـب رضـوخه لمزاجه العكر، وكان يهتز اهتزازًا خفيفًا، وكان العجوز فاردًا أصابعه المهترئـة، أمسـك "حامـد" صـاحبه بقـوة – لا يعـرف مصـدرها – وصافح العجوز، وعنّف صاحبه، فالمكان مقدس وطاهر، تلجلج "مطاوع" في كلامه، وقبل مجيئه شرب زجاجة دواء – لعلاج سعال الأطفال – رخيصة، وجعلتْ دماغه في أصابع قدمه الوسخة، بدأ "مطاوع" يدفع "حامد" دفعًا كريمًا، و"حامد" يتململ ضيقًا، وقد اشتعلتْ الرغبة في جسده ورأسه، وتمنى ساعتها أن يكون مثل "مطاوع"، فاجأه الشيخ سعفان بتربيته؛ فأفاق "حامد" من رغبته، حسبها الشيخ حزنًا صادقًا، فأرخى عنان تنهداته المترحمة على السـابقين، ونكّـس رأسـه؛ فـنكّس "حامـد" رأسـه، تمـتم الشـيخ بالدعاء؛ فشكره "حامد".

انفض الجمع، وانقطع ذيل الطابور الطويل، فأرخى "حامد" يديه بجواره، وكان "مطاوع" ما زال أمامه "حامد"، الذي همّ أن يضربه بعصاه.

حفار القبور يطلب أُجرته، ألقى "حامد" ما في جيوبه، وشَكَره على مضض، وترحّم على "نسرين"، التي كفلته حيًا، وكفلها ميتة.

انفض الناس من حول "حامد" سريعًا، وقد تحمّل أصابعهم، ونعالهم المهترئة، والمرقعة من أعلى ومن أسفل، ما يحزّ في نفسه هذه المجاملة المباغتة، كريم من أكرمه (كل هذا الجمع الذي انفض سريعًا لي، أم له؟! أجزم أنه لي، ويجزم صاحبي أنه للميت، في دماغي لخبطة) أسكره هذا الازدواج، وأعجبه، يكرر حامد محاولة فهمه.

لفحته، و"مطاوع" نسمة باردة، وهما على مشارف الدخول، والحقول الخضراء تتمايل، وتتراقص في عينيه، "ومطاوع" يكمل إيقاع النغم المقلوب، أفاق "حامد" قليلاً، وتلجلج لحظة، حين لمح الأطفال واقفين، وباسمين، ويودون لو يمران من جوارهم، سبح "حامد" في خوفه، ووقف ينظر أي الطريقين يسلك، حدف سلامه إليهم – وما كان آمنًا خالصًا – وانحرف في طريق ضيق، لا تدخله الشمس.

ما زال "مطاوع" يترنح، وفى يديه عصاه، رجع "حامد" سريعًا، واختطفه من الطريق العمومي، ضحك الأطفال، وتمنى أن يضحك مثلهم.

أسرع "حامد" الخطى، حتى يلحق الشمس حين تذهب من سطح البيت الطيني، والمغطى بالقش، وقذارة أهل البلد، هو دائمًا يودعها حين تدمع، وجسدها الأرجوان يتلاشى، السواد يكبر، فيعود إلى فراشه تلدغه البراغيث، ووحدته – وأمله أن يرجع كما كان – حتى انقضتْ أيام التعزية، وعاد "حامد" إلى القاهرة، وفي جعبته شاعره الصعلوك "مطاوع".

اليوم الليلة الكبيرة للسيدة زينب؛ سحب "مطاوع" "حامد"، جسد "حامد" يستنشق عرق الأجساد، وغبار الزحمة، ورائحة الحشيش مع صوت المديح، والابتهالات، وزنقته عبراته حين لمح وجه "فتوح" يمر بخياله، ورأى بعض الوجوه التى تتشابه من قريب، أو بعيد لوجه "فتوح"، أو طريقة لباسه، ومشيته، ظل "حامد" يطارد "فتوح"، و"فتوح" يطارده؛ حتى استقر على فكرة تنقذه.

❊ ❊ ❊

غَرَمَ "حامد" من المال ما يبني اقتصاد بلد فقير.. إحياءً لماض عزيز. ووافق المأمور، وجنوده بالإشراف على الليلة الموعودة.

البلدة تضرب كفًا بكف، للشيخ منامة، والبلدة تُقدم رِجلاً، وتؤخر أخرى، وفي احتياج شديد لشيخ جليل يحفظها من اللصوص، والبلد – دون شيخ جليل، ومقام جميل – خرابة.

في الليلة الكبيرة الأولى لـ"سيدي فتوح"، لمح "حامد" أول المريدين، وتعجب، فقد كان يطوف حول المقام.. العسال، وزوجته، وفتوح الصغير، و"ياسر" بالركن الرابع المخفي.. والمواجه لباب الدخول، يرتدي سروالاً قصيرًا، وعمامة، واللحية قد طالتْ، ثم انتفض "ياسر" فجأة، ونثر الدمعات المتقاطرة على الأرض، ولفّ حول المقام.

٤

الرواة

يتجلى الغناء واضحًا؛ حينما يكون الطير على وشك الموت، ورجع الصدى يملأ فراغ الكون الواسع، وبالسحر الذي لا يملكونه؛ انجذب الرواة للحكاية، ترنموا بها – أولاً – مع أنفسهم، ثم رددوها بقوة، ثم حكوا الحكايات دون خوف؛ بعدما أصبح للشيخ مزار.

١

الشمس على وشك أن تختبئ مع حزن الناس، وعيون الأطفال المتعبة. وسليمان العبد منتظر الميت، وأولاد همّام الحانوتي أيضًا.

حَبَل قلب "سليمان العبد" برؤية همّام الحانوتي، الذي شارف على المائة، والذي لم يخرج للقبور منذ مدة طويلة، نسيه الموت، ونسيته القبور، والناس.

من بعيد؛ لمح "سليمان العبد" همّام الحانوتي {لا معنى للموت إلا بوجوده، هكذا تعودتْ البلد. هو للموت حزنه، وللناس دفنة مريحة، هو الموت، أو الموت هو} هكذا كان يفكر "سليمان العبد"، وهمّام الحانوتي يكنس حصى الطريق، وزبالته بذيل جلبابه الطويل، والذي يرفعه على فترات متقطعة، وكان يتكئ على عصا سنيّه، ألقى على موتاه سلامه، ونادى "سليمان العبد"، وأمره بفتح المقبرة.

لمّ "سليمان العبد" الحصوات الكبيرة، وبعض العظام، وركنها على يساره، وهو يكمل تسوية أرض القبر سمع {هذا صوت أبي الفتح سنية، وهذا صوت الحاجة سنية} مدّ بوزه، ولمح جركن ماء، وصُرّة مربوطة. زحف على أربع، حتى وقف أمام همّام الحانوتي، وقبل أن يسأل قال همّام الحانوتي:

- جركن ماء من عند النبي، ورمل طاهر من طور سينا.

رشّ "سليمان العبد" ماء زمزم بأركان القبر، وحفنات الرمل الأصفر، وسوّى المقبرة، وهو يتعجب (سبحان الله!) سأله همّام الحانوتي عن تمام صنعته، بعدها قال همّام الحانوتي، مشيرًا للواقف بجانبه:

- غَسّلتْ المرحوم؟!

لم يرد "حامد".

- أنت ابنه؟!

- نعم.

"وحامد" يكز على أسنانه، والتي تصدر صوتًا كريهًا.

- العتب على النظر يا أستاذ!

وتسلّم همام الحانوتي الميت.

- ماله خفيف؟!

- خلّصنا.. أرجوك!

سارتْ الأجساد إلى وهمها، وجلس همّام الحانوتي أمام فتحة القبر مع ظنه، ويقين يديه {حرام.. عيب.. خلّيك في نفسك يا همّام} كان حديثه مع نفسه مسموعًا.

- مالك يا أبا همّام؟!

حكى "لسليمان" هاجسه، لم ينتظر "سليمان العبد" أمر همّام الحانوتي، وهدم المقبرة، وجرّ الكفن.

- يا نهار أغبر!

- مالك يا ابن الكلب؟!

- عظم بهائم، وحمير، وكلاب، عظمة طويلة، وعظمة قصيرة، ما في عظمة توحّد ربها للميت.

تحسس الحانوتي العظام الكثيرة، وكتم أمر الميت على ناسه، وجزم بخراب الذمة، وأمر "سليمان العبد" بسدّ فتحة القبر مرّة أخرى.

- يا عم خلّيها مفتوحة.

تركه همّام الحانوتي، ومضى لداره، ولم يخرج مرّة أخرى للقبور، وحمل "سليمان العبد" الكفن إلى بيته، وبعد أسبوع أودعه للخياط.

هذا ما سرده حسنين.. رواية عن أبيه، ورواية عن جدّه همّام الحانوتي؛ بعدما دعاه أحد مريدي "الشيخ فتوح" لزيارة ضريحه.

❊ ❊ ❊

٢

تصرفنا دروب الدهر عن أنفسنا، وتصرفنا هموم الجسد عن التشوف الحق، الصدفة وحدها هي التي تضع المقادير، أو الطريق في وجه أي إنسان.. في لحظة سُكر وعربدة. إن أدرك الإشارة – والتي يظن أنها قبل الأوان – فاز، وإن فشلت جوارحه في استقبال مراد الله؛ تبلبلت حواسه بزيادة، وعاش كالبهيمة.

"الصاوي" مقطوع من شجرة، يغيب عن بيته بالأيام، ويعود – دائمًا – ليلاً. لا أحد يعرف نوع عمله، ولا حتى زوجته "فردوس"، ليس لها – فردوس – أهل هنا، هي من بلدة ليست ببعيدة، ولا بالقريبة، ولا يجزم أحد أنه شاهد أهلها، أو أهله.

"فردوس" تهدهد وليدها الرضيع، كان يبكي راقدًا، أو على جنبه، أو محمولاً، ألقمته صدرها واقفة، وجالسة، وراقدة. ما من شك أن خبرتها قليلة؛ فخبطت على جيرانها النائمين، سقتْ الرضيع ينسونًا، وكراوية، وبخرته، وبسملت، وحوقلت، وخرمت عين الحسود، وبصقت بحرقة على صنم الشابة والفسوخة، وحملقت كثيرًا في الصنم، وتذكرت وجوهًا حاقدة، وبكاء الرضيع يخمش السكون والقلوب، حتى الكائنات الليلية كانت تئن صامتة، ونباح الكلاب المعتاد في تلك الساعة قد انقطع نهائيًا.

ما من سبيل لإسكات صوت البكاء فينا، حتى نبتعد قليلاً عن مصدر الصوت، هو ضعف وقوة، نختلف كثيرًا على ذلك، لكن البكاء يعذبنا، ويذكّرنا بما نسيناه، يذكّرنا بالوجع، والفجيعة، والخسارة من أول يوم؛ لذلك نترك أي شيء لإسكات الذي يبكي، هذه الرغبة المكبوتة نحملها بداخلنا، ونظهرها وقت اللزوم، صبغة الحزن، ومسحة الدموع، هو ما يجعلنا نحاول بأي طريقة إسكات صوت البكاء.

حملت "فردوس" رضيعها، وسارت به في السكك.

- يقطع الخلّفة.

وذرعت مسافة مائة متر.. ذهابًا وعودة بصراخ رضيعها المهووس ببكائه، بقوة غيظها خبطت ظهره، مرّت مرات عديدة من أمام قهوة أمينة.

كان "فتوح" و"سطوحي" المراكبي يتناوبان المعسل المغموس بالقطعة البنية اللون، والدخان يسري ببطء مع الهواء الندي، مما جعل بعض الرجال يلقون سلامهم.. رغبة في المشاركة، لم يجدا أمامهما سوى الرد بعد صمت طويل، وكانا قد قررا عدم الرد نهائيًا.

بكاء الرضيع؛ جعل "فتوح" يتوقف عن مدّ بوزه لفم النرجيلة، و"سطوحي" المراكبي انطفأت رغبته أيضًا، وازدادت في شيء آخر، و"فردوس" بين الحين والحين تعطي صدرها للرضيع، عيناها مصبوغتان بكحل أسمر، جعل العينين تشعان ألقًا، رموشها

طويلة كعودها، مشيتها متماسكة تستقطب العين، وضوء الكلوب المعلق داخل قهوة أمينة يبرز بياضها، الذي يعكس الضوء، فيخطف النظر مرغمًا، ويتعلق بها،

"سطوحي" المراكبي يحمل طين إبليس للفواريكة، من الصعيد إلى الدلجمون، ويشق بالمركب نهر النيل، حتى يصل إلى فرع رشيد، ثم يدخل عن طريق الهويس إلى ترعة الباجورية، على "فردوس" نادى سطوحي:

- يا ست!

بخطوات شافعة، ولهفة لإسكات صوت البكاء وقفت أمامه، نظر المراكبي لها، وبلع ريقه، وفتل شاربه الطويل، هي في عينيه امرأة الدنيا.. لولا بكاء الرضيع، انتفض فجأة، وحمل الرضيع، أحست "فردوس" باليد الخشنة، فبعدت خطوتين، أدرك سطوحي المراكبي موقفه الحرج، فعدّل نفسه بسؤال عادي، سؤال يستره، ويفضح لهفته للخير، ولذلك الرضيع الباكي.

- ماله يا ست؟!

حكت له ما قامت به لإسكات البكاء، وهو يحثها على مزيد من الكلمات، جف نبع الكلام، وحاولت استعادة رضيعها، بغتة سألها المراكبي عن زوجها، أدركت مراده، وخطفت رضيعها.

- أنا في إيه، وأنت في إيه !

بشفاعة الرسول وآل البيت؛ استوقفها المراكبي.

- عليه الصلاة والسلام.

أمسك المراكبي بطرف كمها، وقال:

- ما في غير حجاب الشيخ فتوح.

(ابن الدائخة) قال "فتوح" لنفسه، وفكّر في المطب.

- الله يسترك! قل لي سَكَنه، وأنا أرح له.

- واقف بشحمه ولحمه.. قُدّامك.

وأشار على "فتوح" الواقف بجواره.

أدرك "فتوح" مراد المراكبي، وأمسكت "فردوس" يد "فتوح"، وقبلتها، ووضعت الرضيع بحجره، والمراكبي ينعم برؤية "فردوس"، منشغلاً بكشف المستور عنه في هذه اللحظة، وقال وهو يبلع ريقه:

- خلاص.. خلاص يا شيخ.

"وفتوح" يود الخروج من المطب، وهو يضع لها الرضيع، لمسها، واقشعر بدنه، تغاضت، ابتسمت بخبث، وشوشها "فتوح":

- اسبقيني على البيت، وولعي القوالح، وهاتي البخور.

سارت، وكشف ضوء الكلوب عرقوبها المدور، وأدرك المراكبي و"فتوح" أنها حافية، لم يحفل روث البهائم، وطين الأرض بتشقق الكعبين، وتركها ناصعة البياض، وملساء كالعاج.

حبك "فتوح" طاقيته، وعدّل من وضع التلفيعة، ونظر لنفسه في – مرآة سمراء – وجه المراكبي:

- أنت السبب!

ومضى مبتسمًا.

بمقشة مهترئة، كنست "فردوس" حصى الغرفة، ورشت قليلاً من الماء؛ ليهبط تراب الكنس، وفرشت الحصير، وأتت بشلتة، ومسند، ووضعتهما بجوار الجدار، ومسحت لمبة الجاز.. نمرة عشرة، وسكبت فيها الجاز، وأشعلتها، وأحضرت "المنقد"، وكسرت القوالح نصفين، ورتبتها كالهرم في المنقد، ورشت بعضًا من الجاز، وكان جدي صغير – مربوط بوتد – يجرش العليق بتؤدة.

تنحنح "فتوح" بصوت ضعيف، ووقف قليلاً أمام الباب الموارب، تركت رضيعها، وقامت "فردوس" مسرعة:

- تفضل.. الدار نوّرتْ!

- منورة بأصحابها.

وقبل أن يهمّ "فتوح" بالجلوس؛ وضعت الشلتة تحت مقعدته، والمسند وراء ظهره، وقرّبت المنقد المشتعل، ومن تحت سريرها النحاس، أتت بصينية الشاي، ووضعتها أمامه مبتسمة، وبكاء الرضيع لم ينقطع بعد، وضع "فتوح" كنكة الشاي فوق الجمر المشتعل، وألقم الكنكة شايها، وسكُرها، كانت "فردوس" زائغة العينين، ومتلهفة لصمت رضيعها، نظر قلقها، وقال:

- كله بأمره.

صبّ "كنكة" الشاي في كوبين صغيرين من الصاج المدهون بالأبيض، وارتشف رشفات بتلذذ، وهي أيضا، والبكاء لم ينقطع بعد، قال فتوح:

- الرضيع له بُكا، ولنا بُكا.

وسألها عن اسمها، فغمغمت:

- فردوس.

- الله! أنت بتفكريني بالجنة، وحور العين.

نظرها، ونظر نفسه:

- قلت لك، نسكّت مين؟!

بين الفهم، والحقيقة، والنتيجة مسافات، لكننا لا نعرف متى نبدأ، أو متى ننتهي!

كانت كقطة صغيرة ملبوسة بالحنان لأول مرة، وهي بجانبه، ارتعشت، وانفلتت منه، وهي مبهورة:

- يا كسوفي!

وحملت رضيعها، ووضعته بحجر "فتوح" الواسع.. كأنه الدنيا، واستقام عودها، وأمسكت طرف ثوبها، فبان ملمس العاج، نظرها شامخة بما لديها، أحسّ "فتوح" بيديه – وهما تحملان الرضيع الباكي – تنزلقان فجأة على جمرات المنقد، أطلق آهة ورمى – قطعة البكاء – الرضيع بكل عزمه، نسيت "فردوس" أمرها، وبلهفة حملت رضيعها، والرضيع زاد بكاؤه ألف مرة.

- اسم الله عليك!

وحدّقتْ في وجه "فتوح" – كأنها تراه لأول مرة – وهو يلحس مكان اللسعة بطرف لسانه.

وضع "فتوح" البخور كله، واحتل الدخان الغرفة التي بلا نوافذ.. غير كوّة صغيرة جدًا بالسقف تسمى [رزونة]، وتمتم ببعض

الكلمات، وتذكر مواقف كثيرة، وقد ساقته الظروف لمجالس أكثر من شيخ، كان يرى ويسمع كلمات الشيخ، الذي يربط الذين على وشك الدخول لعش الزوجية، ورأى وسمع العلاج بالقرآن، وإخراج الجن من الجسد، ورأى شيوخ المحبة، وشيوخ الكُره، وأعمالهم التي تناسبهم.

استعاد هيبة هؤلاء الشيوخ، واستعار جدهم وهزلهم، وزلف اللسان ما وعته الأذن مرة واحدة، حتى أصبحت الغرفة مرفأ لكل ملل الجان، وبدّل مخارج حروفه، وجعل أولها أخرها، هي لغة يعي من يسمعها أنها لغة شيطانية، وقلب جفن العينين، وبانت حمرتهما.

في هذه اللحظة صمت الرضيع لأول مرة، فابتسمت "فردوس" ابتسامة بين الفرح، والفزع.. لكنها اطمأنت، فوضعت رضيعها راضية بحجره مرة أخرى، أمسك "فتوح" الرضيع بيديه الخشنتين، قام، وتخطى بالرضيع المنقد سبعًا من المرات، سعل الرضيع، فخبطه على ظهره، وقال لساكن بدن الرضيع:

- اخرج.

تلفتت "فردوس" إليه بتعجب، والبخور جعل وجهة الأسمر أكثر لمعانًا، وهيبة، وفتوة، أمرها "فتوح" بإحضار السبع حبوب، لمّتْ منها ستًا فقط.

- ابحثي عن الحبّة السابعة.

نكشت مطرح نومها، وتذكرت وصية أمها: احملي يا بنت بطني السبع حبوب لأي مكان تعيشين فيه. ربطت أمها – آخر مرة – السبع حبوب في صُرّة، أين هي الصُرّة؟! تذكرت أنها انتقلت للعيشة مع "الصاوي" بأكثر من مكان، لطمت خدها، وخبطت صدرها، وربطت بين غياب الحبة السابعة، وغياب ابنها إلى الأبد.

- خلاص.. خلاص يا فردوس !

لم تركن لقوله، وغشاها دمع حارق، تزحزح "فتوح" قليلاً، وقرّبها إليه، ونَعِمَ دمعها بملمس كفّه الخشنة. استطاب لها الصمت – لأول مرة – بعدما أدركت صمت رضيعها، ساعتها تبسمت بارتياح.

بعدما خلع "فتوح" طاقيته، ورأت شعره الأجعد، ورأسه المدورة، وجبهته العريضة، وتحققت من أذنه – كأنها تراها لأول مرة – أدركت أن رأس الرجل كنز، رمى "فتوح" التلفيعة، وأنام الرضيع على الحصير، ولمحت "فردوس" – وهو يضع رضيعها – أزرار الصديرى مفكوكة، وشعر الصدر يخرم الفانلة، ورأت أيضًا الذراعين كمارد ضخم، يستطيع لمّ الأ شياء المبعثرة، والبعيدة جدًا، مارد يستطيع فك شفرة الغموض، والحالات المستعصية على الفهم.

أدركت "فردوس" قيمة الاحتواء، وتشبعتْ بسعة العالم، كان لها الصدر حلمًا، ومرقدًا، وكان لها الشعر النافر من الصدر ضميرًا

يؤرقها، وكان لها الرضيع حياة أخرى، أو امتدادًا لهاجس.. يزعم الناس أنه يقين، أمرها "فتوح" بإحضار قُماشة لعمل الحجاب.

- هه!

ولمّا استفاقت من غفوتها قال "فتوح":

- اللهم لا تجعل بيني وبين الناس حجابًا.

أدركت الإشارة، وابتسمت ابتسامة صافية؛ ملأتها بعطر غامض، عطر يحقق حياة، أو لذة للحياة، عطر نتغنى به، به شيء من الخلود، أو قل: هو الخلود، تسميه القلوب عشقًا، والأجساد زادًا، والعيون متعة، نصفه جمال، ونصفه قبح.

قصّتْ "فردوس" قُماشة الحجاب، وجلست بجواره، مدت رجليها إلى الأمام، وانحسر جلبابها قليلا، أخرج "فتوح" من جيب الصد يري نوتة صغيرة، وأمسك القلم الكوبيا، وبلّ حافته بطرف لسانه، خط بعض الكلمات، الورقة الآن مستطيلة الشكل، خاطت "فردوس" الحجاب، وتركت الفتحة الرابعة، وانتظرت صامتة.

أمام "فتوح" الفول، والعدس، والسمسم، والأرز، والذرة، والقمح. كان يجب أن تستلف "فردوس" الحبة السابعة، والحجاب – أي حجاب – يجب أن يلم كنوز الأرض بداخله.

ترك "فتوح" رقم سبعة مضطرًا، عليه الآن أن يختار بين رقم ثلاثة، ورقم خمسة (الموت واحد، الحياة واحدة، هل البركة في العدد الفردي؟) تحيّر "فتوح"، وبدا له الموقف صعبًا، ونظر لفردوس، ولرضيعها، ثم أدرك نفسه، وجعلها رقمًا لأول مرة.

الأرقام – كالحروف – رسم نتفق جميعًا عليه، من قال إنني أتفق على ذلك؟ الاتفاق سارٍ قبلنا منذ مدة طويلة، وأصبح شيئاً ثابتًا، الأشكال تتغير. لماذا إذن لا تتغير الأرقام، والحروف كل مدة؟ هل هي غاية في ذاتها؟ متى تصيب الأرقام، والحروف جوهرها؟ واحد، واحد، واحد، هذه الأرقام متشابهة، بمنطق الأعداد، لا فرق بينه وبين الرضيع.

رتّب "فتوح" الأعداد بمنطقه، فجعل نفسه أول الأرقام، وحاجته – فردوس – رقمًا آخر بجانبه، ورقم زائد.. هو الرضيع، ووضعه بجانب أمه، ونظر للمشهد في مخيلته، وابتسم، وحاله يقول: (واحد هو الرقم الذي أحسه، وأعرفه، هو نفسي) لم يكن يعرف أن للأرقام قيمة أخرى – غير الحساب – إلا بتلك الغرفة، هي غرفة الحقيقة، وغرفه المجاز، تحوى الكون منذ بدايته، حتى نهايته، بها رجل، وامرأة، وشاهد، بها اتحاد، وامتداد، وانفصال، بها خوف، ورجاء. قال "فتوح" لنفسه: (لولا النَفَس الغالي، ما أدركنا الآخر، ولا عرفنا أنفسنا) وعلا صوته بقهقهة مكتومة. ووضع حبّات الفول، والقمح، والسمسم من الفتحة الرابعة للحجاب. خاطته "فردوس"، وبجوار صدر الرضيع، شبكت الحجاب بدبوس، الصمت بدأ يقلقها، ابتسمت، ثم سألته عن اختياره للحبوب الثلاث، عدّ "فتوح": واحد.. اثنان.. ثلاثة، وابتسم ابتسامة صافية.

- والقمح، والفول، والسمسم؟!

قالت"فردوس":

- القمح للبنى آدم، وللبهائم الفول، والسمسم زيادة.

وصَمَتَ "فتوح"، وكان الجمر قد أصبح رمادًا؛ فقامت "فردوس" تطفئ لمبة الجاز.

❊ ❊ ❊

اختفى الصاوي أو مات.

❊ ❊ ❊

يقول طارق المسيري: انسحبت الكائنات لظلمتها اليومية، ورتينة الكلوب على وشك السقوط، و"أمينة" نائمة فوق المصطبة، رمت عدّة الشاي بجردل مملوء بالماء، ووابور الجاز على وشك الانطفاء، انسحب ضوء الكلوب، وشحب، كما انسحبت ضجة الحياة، وحلاوتها، و"سطوحي" المراكبي – ابن ليل كما يقولون – هو الذي يخمش الكون الصامت، يلقي بين الحين والحين نظرة على البيت، الذي يحتله "فتوح"، لمح شبحًا آتيًا من بعيد، يسرع الخطو، فوق كتفه بقجة، بعينيه لهفة الظمآن. وعلى جبهته كتاب مسطور من الأزل، وبخطوه سرّان، بقدمه اليمنى سعي دائم.. في بلاد الله لخلق الله، وبقدمه اليسرى سعي آخر لحياة أخرى، كان جسد "الصاوي" النحيل يرتعد لوصوله لمرفئه بعد غياب أيام كثيرة، المراكبي يتأمل القادم بعين ذئب (آه.. فتوح تأخر) قال

لنفسه، تخطى الشبح الجسد المكّوم وحده على دكّة خشبية قديمة، ولم يلق سلامًا، أو تحية.

- ابن الكلب!

قال المراكبي.. تسَّمر الشبح أمام بيت "فردوس"، فأدركه صوت المراكبي:

- يا أبا الشوارب.

وهرول المراكبي ناحيته، وسحبه، وطلب كوبين من الشاي، ونرجيلة.

- تعرفني؟!

- أكلمك في موضوع، لو سمحت!

- موضوع؟!

وصمتا.

بالقدم اليمنى يسعى "الصاوي" لبيته، وبقدمه اليسرى يسعى إلى المراكبي مضطرًا، ثلاث مرات؛ والمراكبي يحاول أن يكلمه في أي موضوع، حتى أن "الصاوي" ظن أنه ممسوس، وظن بامرأته الظنون، فخبط بقدمه الباب.. واضعًا البقجة أمام الباب، وناظرًا للمراكبي الواقف بجانبه.

حين همّ "الصاوي" بالدخول؛ خنقه المراكبي "باللاسة"، وحمله فوق كتفه.. متخفيًا بظلام الكون، وربط المراكبي بكل قدم حجارة ثقيلة، وبجوار دفّة المركب ألقى "الصاوي"، ولمّا فرغت المركب من طين إبليس، وهمّ بالرجوع إلى الصعيد؛ ربطه بدفّة المركب، وحين

تخطى الترع الصغيرة، ووصل إلى اتساع النهر الخالد، ترك جسد "الصاوي" قربانًا للماء، وللحب.

ويؤكد طارق المسيري: بعد مرور عدة أعوام، وجد بعض الناس بمرسى المراكب.. عند الموردة بقجة "الصاوي" مدفونة تحت كومة كبيرة من طين إبليس.

ويقول آخر: "الصاوي" ليس له عزوة، أو أهل يفتشون وراءه، ولم يهتم أحد بموته، أوحياته.

يقول أحمد شرف: سطوحي المراكبي غلبه الصمت، وأدرك جسده المهدود ذلك الصمت، فانكفأ على نفسه، وغفل عن متابعة الطريق الخالي، وقامتْ "أمينة" لحالها، ومن الداخل أقفلتْ باب قهوتها، ونامتْ. وكانت رتينة الكلوب قد سقطتْ، فعمّ الظلام. وقف المراكبي وحده كأنه حارس وحيد لليل وحيد، واستهلكه الترقب في عودة "فتوح".

وضع الصاوي بقجته أمام الباب، وشمّ رائحة البخور الهاربة.

- فردوس.. بنت يا فردوس!

- يا لهوي!

نتر "فتوح" نفسه، وكَمَنَ وراء الباب، فتحت "فردوس" المزلاج، غشي بصر "الصاوي" ضباب الغرفة.

- أول مرة تبخري البيت! عين صابتك؟!

- الولد تعبان، وملبوس، الشيخ فتوح رجل طيب!

- الشيخ فتوح؟!

- لولاه كان الولد راح مني!

كمون "فتوح"، جعله يمدّ الكون الصامت بذكرياته الخاصة، التي عاشها، والتي لم يعشها، واستهلكه الموت والحياة، والعجز – في هذه اللحظة – يرسم له خطة ليست على باله (كيف لا يكون لي ماض أطول؟) كان يفكر، وكان يقصد: حاضرًا أطول.

الهواء يلسع رأس "فتوح" العارية، و"الصاوي" – بعد غياب – يتمرغ فوق سريره، كانت الطاقية فوق المخدة شبه مكومة، أمسكها "الصاوي"، وتحقق منها، هو لا يلبس طاقية من أصله، قفز "الصاوي" كأرنب جبلي، وجلس أمام الباب، سعل "فتوح" مرغمًا، أمسك "الصاوي" مزلاج الباب، وقبض كل منهما على الآخر.

بخطوات بطيئة مشى المراكبي، وقف أمام بيت "فردوس"، وتخيّل مشهد صاحبه، فنادى عليه بصوت هامس:

- فتوح.. فتوح.

كان "فتوح" يود عدم الرد.

- تعال يا سطوحي.

وحاول المراكبي فتح الباب. أزاح "فتوح" جسد "الصاوي" النحيل عن مدخل الباب، وفتح للمراكبي، الذي سار متجهًا ناحية "فردوس"، وقبل أن يصل إليها، كانت المُدية حول رقبته، وأزاحه حتى الشارع، وقفل الباب من الداخل، خبط المراكبي الباب مرتين، ومضى يتمتم.

- عاوز يقتلني.

الضحى، كان المراكبي يصيح في الناس: قتيل. بحثوا عن القاتل، والمقتول، لم يجدوا أحدًا.

ويؤكد أحمد شرف: عرف "فتوح" نيّة المراكبي فاختفى، وهاجر إلى بلاد الله، وتعلمّ على أيدي شيوخ كبار.

يقال: إنه تلقى تعاليمه في طور سيناء، وكانت له الصحراء نبوءة، وعاد إلى أرضه بعد غياب عشر سنين انقضت.

تقول صاحبه البيت: لم يسكن أحد بيتي أبدًا، ولم أسمع بـ"فردوس"، ولا بالصاوي.

ويقول آخر: المراكبية أعرفهم بالاسم، وليس بينهم اسم "سطوحي" أبدًا.

يقول الحاج سيد السوداني: "الصاوي" كوّم شوقه ورزقه في بقجته، وهمّ بالرجوع، راضيًا هذه المرّة. ألقى سلامه للّيل الساكن، وأهله، حتى وقف أمام بابه، وبقجته على كتفه، زكمتْ أنفه رائح البخور.

- الله!

ورفع يديه، وأمسك الحلقة النحاس المتدلية، وقبل أن يدق الباب كان قد انفتح، الباب يفُتح دائمًا من الداخل. بعود من الكبريت أراد إشعال لمبة الجاز. لولا أن قدمه تعثرتْ بالرضيع المتمرغ في نومه على الحصير، والمنقد بجواره، وبه بقية من سخونة، وضع بقجته على رأس الرضيع، ولمح صينية الشاي بجوار المنقد، وبقايا الشاي في الكوبين. و"فردوس" نائمة على سريرها

النحـاس، تحسسـها "الصـاوي" مفعمًـا بفرحـة رجوعـه، همسـت "فردوس" وجفونها تقبض على حلمها:

- حرام عليك يا فتوح، كفاية!

مشـاعر "الصـاوي" الآن شـيء آخـر، غلبـه تعبـه، ونـام مفعمًـا بيقينه، وخبأ نيّته ليوم آخر.

صـباحًا، سـمعت "فـردوس" شـخير "الصـاوي"، فاسـتعادت يقظتها.

- يا لهوى!

وأدركت أن ليل البارحة لن يدوم، وغفلت عن بكاء رضيعها، وعلّقت عينيها على "الصاوي"، بعدها وضعت على الوابور صفيحة الماء، وانتظرت (العمل يا بنت يا فردوس؟! أكيد عرف، لم أدر به!) طردتْ أفكارها، وأتتْ بالطست الواسع، ووضعته بوسط الغرفة، وقبل أن تستحم غسلت رضيعها، بعدها صبّتْ الماء، ودعكتْ نفسها بصابونة سمراء.. رخيصة، وحّكّتْ كعبيها بطوبة ناشفة.

لم يلق "الصاوي" عليها الصباح كعادته، فتمسحت "فردوس" به كقطة صغيرة تود الدفء، كان كتمثال من الحجارة، فقامت إلى عادتها، وصبّتْ على يديه ماء إبريقها، أزاحت اليد الخشنة، والماء عُماص العينين. كسر "الصاوي" – بداية يومه – خبز يومه، وألقمه فمه الواسع بإهمال، وأسنانه الصفراء تزدرد ليل البارحة – بما له، وبما عليه – بتؤدة، وعف لسانه عن النطق. وعقله يستجير بصورتها، وهي تنطق باسمه، كانت عينه تلقي على الجدران وعلى

رضيعه، وعلى الجدي الذي يجرش العليق بفرحة رغبة مكتومة، هذه هي المرة الأولى التي ألقى لهفته – على رضيعه – جانبًا عن عمد، كانت لهفته مصدرًا للفرح والاستمرار، باتت الآن شوكة في عمره، صبّت "فردوس" الشاي في كوبين، وقالت:

- لولا الشيخ فتوح كان الولد راح في شربة ماء، الله يبارك فيه، وعمل له حجاب.

تمتم "الصاوي" بكلمات غير مفهومة، أكملت كلامها:

- والغريب يا صاوي! كان في منامي طول الليل يوصيني على الولد، وعليك.

قال باقتضاب:

- يوصيكِ عليّ؟!

وقهقه عاليًا، رشفت "فردوس" رشفة من كوبها، وقالت:

- لدرجة ما دريت بك.

(يا بنت اللئيمة!) قال لنفسه، لكنه أزاح كوبه، ومن فوق السرير أتى بطاقية، ورماها أمامها، هو لم يرتد طاقية طوال حياته.

"الصاوي" مكوم بجوار السرير، يتسمع صوت السكون، وصوته، كان يحاول معرفة مفرداته، ومن أين تأتي، صوته مسكون بالخرس، ولصوته إيقاعه، وحروفه، التي تخرج من الأحشاء مسيطرة عليه، حروف لا تكتب، أو تسمع، حروف تعترف بأحاديتها، ومنطقها الفردي، وتختلف من شخص لآخر، كان في صمته يتابع نفسه، وكان تأريخ البشرية كله – أمامه – يتسرب

نقطة.. نقطة، حتى العدم، كانت حركته سكون، وسكونه حركة، لم يتحرك "الصاوي" من فوق سريره، وتكّوم النهار الطويل بجواره.. معلنًا تضامنه، حتى أشعلت "فردوس" لمبة الجاز. وعلى جمرات المنقد وضعت بخور الشيخ "فتوح"، وكان الرضيع قد تمرغ في نومه، وتحت رأسه وضعت مخدة صغيرة، وغطته بجلباب قديم، لمست يدها حجاب الشيخ فتبسمت، واستعادت ليل البخور، وطلاسم الشيخ المبهمة، وتمددت "فردوس" فوق السرير:

- تعال يا صاوي.

قالتها بدلال، وهي مفعمة بنداء غامض..عَرَفَه الشيخ "فتوح" وحده، تمدد "الصاوي" بجوارها، بعد أن أطفأ لمبة الجاز، استعادت "فردوس" أدق تفاصيل ليل البارحة، وداعبها "الصاوي"، وزحزح أمر نفسه ليوم آخر، وكان نقطة مظلمة في تلك اللحظة، وكانت "فردوس" تقبض على شيئين لها الآن، وجفونها مفتوحة على عالم آخر تود الوصول إليه، هامسة قالت:

- حرام عليك يا فتوح، كفاية!

قالتها عفوًا، أو قصدًا، لا أحد يعرف نّيتها، استكان "الصاوي" – بعدها – بجوارها باكيًا، وكانت قد انفجرت بالضحك، كسابقه كان اليوم الثاني، وكان طقس "الصاوي": الصمت نهارًا، والبخور ليلاً.

ويؤكد الحاج سيد: على جناحه الأسود، وبغتة حمل عزرائيل "الصاوي" بعد يومين.

تقول صاحبة البيت: يقطع العشق، وسنينه! البنت "فردوس" عشقت، والعشق ماله دوا، غير الوصال. وآه من العزول! وكانت قادرة بعشقها لأول مرة. سمّمتْ جوزها، وجدتُ "الصاوي" راقدًا، وماسكًا طاقية، لونه أزرق، وعيناه طالعة لبره، و"فردوس" تلطم خدها، وتبكيه.

يقول سطوحي المراكبي: "فتوح" غسّله، واشترى الكفن من جيبه، وهو الذي أخذ العزاء، بعدها اختفت "فردوس" عن أعين الناس، واختفى "فتوح"، وتلاشى مدة عشر من السنين، بعدها عاد "فتوح"، وعلى كتفه بقجة "الصاوي"، لكنه ظل صامتًا، حتى قبل وفاته بعشر سنين.

ويؤكد سطوحي المراكبي: حمل "فتوح" بقجته على كتفه، وترك "فردوس".. مخلفًا وراءه دقات زائدة لقلب عاش على حقيقته، بعدها داومت "فردوس" على البكاء مدة، وانفلت رضيعها من الحياة، وأمسك بزمام العدم.. قبل أن يكمل عشرًا من السنين.

راحت الأيام، وراحت عيناها، ودامت ظلمتها كما دام حجاب رضيعها، حرصت "فردوس" على الحجاب مدة، ثم شبكته على صدرها، وقطعت شوطًا تستعيد ما جرى، كان الزمن – زمنها – يجري للخلف، يجري كما يجري، المهم أن له خطًا! بعدها ولت هاربة إلى حيث أراد الله على كف عزرائيل، بعد أن صلّوا عليها لزم الرجال دورهم أيامًا قليلة، بعدها، تمايلت الأعناق بنغمة الحياة.

"شفيقة شلتوت" الوحيدة التي لزمت دارها، وأمرت زوجها بعدم الخروج، بعد ما حصلت على كنز فردوس، كانت "شفيقة" تغسل لها الجسد المتهالك، والمتهدل مع هدومها المتسخة على فترات بعيدة، ورأت –"فردوس" في أو اخر أيامها، بعدما نسيت الكلام – يديها قابضتين بعنف على الحجاب، وسمعتها بصعوبة تقول.. قبل خروج النفس الأخير.

- أنت حجاب يا فتو.. حجاب!

يقول زوج شفيقة شلتوت: كان الحجاب – حجاب فتوح وفردوس – ملء العين، والخاطر، وحكت "شفيقة" لزوجها ما سمعته من "فردوس".

كان زوج "شفيقة شلتوت" ترفعه بلاد، وتحطه بلاد، الصدفة وحدها هي التي ساقته للدلجمون، نزل سوق الدلجمون لما ماتت جاموسته، وعزّ عليه شراء غيرها من الأسواق المجاورة، الاختلاف على السعر هو السبب، وكان قد نسي ابن خالته، الذي تزوج من الدلجمون، واستقر بها، كان حضنه دافئًا، يكسو السنين التي انقطع فيها عن بلدته.. الدلجمون، وكانت الليلة هي مولد "سيدي فتوح"، زار المقام، وسمع إنشادًا، وكرامات الشيخ في مقامه المزين، والمريدين الكُثر، لماذا في هذه اللحظة تذكر الحجاب (أنت خائف؟! افتحه.. لا.. افتحه.. لا) كان قماشة الحجاب، وشكله هو النهار، وباطنه هو الليل، وكانت فكرته مثل يوم كامل.. ضوء وظلمة، وكان الشوق، والحيرة مثل إنسان.. أي إنسان. وظل يومين متأرجحًا.

في اليوم الثالث، وفي الحدّ الفاصل بين النور والظلمة، فتح الحجاب خلسة، و"شفيقة" تلّم الصحون، وأولادها على طبلية العشاء، كشف المستور يحتل لحمه.. مختلطًا بهاجس العقاب، وجهًا لوجه مع الشيخ، ارتعشت نظرته، وارتجف القلب من فرط شكوكه ويقينه، حاول القراءة، السطور تهرب منه، لاحظ أن اليد ترتعش، والنظر أيضًا، بسمل، وقرأ الصمدية، ووضع ورقة الحجاب بحجره، الخط نقش فراخ، والكوبيا بهتت، وشربتها الورقة التي اصفرّت، وتشابكت الحروف، استطاع قراءة السطر الأخير، ردده مرات:

- الله يخيّب الولد، وأمه.

ضحكة عاتية جلجلت أرجاء الكون.

حلف حمدي الشافعي بأغلظ الأيمان، وأجزم بيقين ثابت، وحكى:

من عادته: أن ينظر "الصاوي" إلى بيته، وسريعًا كان يعود. غاب أكثر من يوم، كانا يتناوبان الحراسة

- على البضاعة – والربح، وأياديهم تتشابك في اللقمة – والغموس – المقسومة. يشتريان بالات الهدوم القديمة، ويغسلانها، حارسان – كنا – على باب الله في سوقه، يعبدان الله حق العبادة في – سوق – أرض الله. كانا يومًا كاملاً، أحدهما نهار، والآخر ليل.

(المرض.. آه من المرض!) قال حمدي لنفسه، وترك البضاعة أمانة، وسعى للصاوي كسعيه للربح، ولاكتمال يومه، الصاوي أزرق الوجه، مقطوع النفس، يمسك كرشه، استغاث.

- مصاريني يا حمدي.

- سلامتك.. ألف سلامة يا صاوي.

لم تحرك "فردوس" ساكنًا.. تنظر حمدي مليًا، ما الذي جعله يبعد؟ أهي نظرتها، أم نظرته، أم هو الخوف؟ حمل حمدي بقجته، وترك بعض النقود تحت رأس الصاوي، أهي نقود لدرء الخوف، أم هي ثمن للألم، أم أنها رشوة للهرب؟!

مات "الصاوي"، ومضى فرحًا بأفخر ثيابه التي ارتداها عن طيب خاطر، وبأمر فردوس، وكانت محياه تقبض على حلاوة الموت، وابتسامة صافية من الكدر والألم.

بين الموت والحياة حكاية مفترضة منذ القدم، هي حكاية للتواصل، أو حكاية للخلاص، لا يعرف سرها غير القاتل، أما المقتول فإنه أداة، تنتهي الحكاية بمرور وقتها المفترض.

قرب الفجر حمل "فتوح" "الصاوي".. نصف اللعبة، وألقاه على باب جامع العمري، وعاد – لنصف اللعبة الآخر – لجسد حي ينتظره.

تسبق خطوات خادم جامع العمري تسابيح، وذكر تطمئن له القلوب، بجيبه مفتاح – للجنة – لمسجد الناس، ومسجده، على باب الميضة الخارجي تعثر بجسد مركون على حائط الجامع، ظن أن

فـتح البـاب، دخـل الغريـب وراءه، انتظـر قلـيلاً بطرقـة الميضـة الداخلية، عـاد، وحـاول إيقـاظ الغريب، لكنـه لـم يفلح، سـكّ بـاب الميضة، وآوى إلى بيته، وهو يستعيذ.

الجـامع الوحيـد ينتظـر مفتاحًـا وحيـدًا (ضـاع الفجـر، وضـاعت بركة اليوم!) قال إمام الجامع، وتمتم:

- ارحمنا يا أرحم الراحمين.

وكان قـد أعطى للجامع ظهره، ولـبعض العجائز، أرسـل للخـادم مرتين، وفى الثالثة ذهب إليه بنفسه.

- سامحني يا مولانا. راحت عليّ نومه.

قـال الخـادم، ومشى وراء الإمام، يتعقـب خطوه الواثق، بعصـاه الواثقـة ضـرب الضـوء سُـمرة الكون، التي طالـت هـذه المرة. الإمـام لمـح الغريـب المركـون على الجـدار. ألقـى عليـه سـلام الله. وبعصـاه خبطه خبطة خفيفة على رأسه.. لكن الغريب لم يقم، ولم ينطق. تناوبوا رؤية الغريب. لم يعرفه أحد.

انفتحـت عيـون العجـائز – لأول مـرة – علـى مـوت قـادم ينتظرونه، كان حصنهم الجامع، أما وقد قرّب الموت إلى هذا الحد؛ فـإنهم مجبـورون على العـودة إلى دفـء الفـراش، والزوجـة، والأولاد. تعكزوا على وهنهم، وعـزمهم، وهمّـوا بترك الإمام، كانوا بين حقيقـة المـوت، وحقيقـتهم. لـم يترك لهـم الإمـام فرصـة الاختيـار، وبصـوت واثق لمّهم.

- إنا لله، وإنا إليه راجعون.

وصلّوا الفجر صُبحًا لأول وآخر مرّة، وظلّوا بالداخل حتى الضحى. أجساد بني آدم تستر نفسها بجلابيب "الوردة روبة"، والأكتاف تحمل فأسها، والحمير تحمل شقاء يوم كامل، وبردعة بها سباخ الزرائب، والأبقار، والجاموس تجتر في مخيلتها الضعيفة لون البرسيم الأخضر، وتبرق في عيون البهائم، والبني آدم فرحة منسية.. منتزعة من ظلمة، وتعب، والجبين فوقه سطور مستورة، لا يفك طلاسمه أحد، وفى القلوب بداية جديدة، تستحق المجازفة، ونسيان ما فات، وتَقَبُّل الآتي ببسملة.

بعد فترة قصيرة صارت البلدة قطعة ملتهبة من وجع وفجيعة، والمركون على جدار العمري لا يبدي أي اهتمام للبشر، والأرض، والسماء، بين الحين والحين، تسمع تنهيدة طويلة، وبكاءً، وخبطًا على الصدور، وولولة صادقة على فقد عزيز، ونسي الفلاحون أراضيهم، وفؤوسهم، وبهائمهم منتظرة سعيها اليومي. وبوجعهن المختبئ، سعت نساء البلد لنجاة مرتقبة، وفتشن عن أزواجهن، والسؤال الغامض قد اختفى نهائيًا، وحل محله سؤال أكثر هدوءًا، وإجابة أكيدة:

- أكيد غريب!

والإمام، وجماعة الفجر قد خرجوا من مكامنهم، وشاركوا في احتفال البشر بموت غريب، ورش الإمام ترحماته على الأموات، والأحياء، وتشهّد على نفسه، وذرف دمعتين، ومسح وجهه بالكفين المرتعشين، وانتظر.

انتصبت الشمس حارقة، فذكّرتهم بالفؤوس، والبهائم؛ فسحبوها مسرعين، موت الغريب أدرك حياتهم، فنكّسوا الرؤوس المعممة، والعارية. وصعد مؤذن العمري درجات المئذنة:

- فعلاً غريب! خلاص ندفنه.

قال الإمام، وحاولوا إدخال الغريب.

"فردوس" محلولة الشعر، تزرع الطرقات بآهات موجوعة، وعيونها تصب ماءها على الرضيع، الذي اكتوى بدمعها الحارق، يبكي الوحشة والفقد، والنسوة يمسكن تراب الأرض المعجون بدمع المرأة المثكولة، ويصنعن مواويل للفقد، والحزن المرتقب.

- آه ..آه.

- شدّي حيلك!

وتشيل فردوس تراب الأرض، وتضعه على رأسها، وتلطخ به وجهها.

- وحّدي الله!

- ما لي غيّره. أنا مقطوعة من شجرة.

ووقفت أمام موتها، لطمت خدها، وشقّتْ هدومها، أبعدها الرجال، وحرستها النسوة.

حاول الإمام والرجال إدخال الغريب للجامع، كانت الأرض بكل ثقلها، هل يستطيع أحد أن يحمل الكرة الأرضية بسواعد أهل الأرض؟ لمسته "فرو دس"؛ فكان خفيفًا كريشة، إن توقفت عن السير؛ توجع الرجال من ثقله، سارت معهم إلى الداخل، أرادوا أن

يغسّلوه، فأبى الغريب حتى غسّلته "فردوس"، ثم أرادوا حمله على النعش، لم يقدروا، فحملته "فردوس"، أرادوا دفنه، لم يدخل الغريب قبره حتى دخلت معه – فردوس – القبر. وعلى مرأى المشيعين؛ انغرس نصفها التحتاني.

أتت الحكومة، وضربت عليها بالطوب، وقدموا لها الطعام، وأقاموا عليها حراسة.

لم تبك "فردوس"، ولم تصرخ، فقط؛ ترضع وليدها، وتتحسس حجاب الشيخ "فتوح"، سألها الناس، والحكومة عن سّرها، لم تجب "فردوس" بشيء، غير أنها طلبت الشيخ "فتوح" من صلاة العصر، حتى المغرب يوميًا.

الناس يضربون كفًا بكف، وتأتي من البلاد المجاورة للفرجة، ويدفعون أُجرة هذا المشهد للحكومة.

الهائم على وجهه في غيطان الناس يسرق نبتها، ويبيعه خلسة، والذي لا يعرف أباه، والذي تدعوه المآتم والأفراح – مرغمة – بحزنها وفرحها.. ابن زهيرة العايقة يقول:

كانت بقجة – حمدي الشافعي – تنتفخ بالقماش فعلاً، يبيع لناس البلد، ويقبض ثمن بضاعته في مواسم الحصاد، ظهر فجأة، واختفى فجأة، لم تطأ قدمه الحافية أي جامع، يحلف في الكبيرة، والصغيرة، يرسم الصليب على صدره، هو يهودي متنكر في جلباب مسلم،

واسمه الحقيقي بنيامين[1] وهو أول من هاجر إلى إسرائيل، ويحضر مولد سيدي أبو حصيرة بدمنهور.[2]

في مولد سيدي "فتوح" يقول الناس: ابن زهيرة العايقة مخلول، وطول عمره كذاب.

---

١ يقول إسحاق أبو حصيرة .. الحفيد الخامس للحاخام أبو حصيرة: المدفون في مصر هو يعقوب، أحد أتباع أبو حصيرة، والمسئول عن نشر دعوته، وتبليغ معجزات الحاخام رابى شموئيل، الذي أطلق عليه لقب أبي حصيرة، رابى شموئيل ولد في فلسطين، ثم هاجر إلى المغرب في طفولته منذ ٤٠٠ عام بسبب الحروب، وكان أحد رجال الطائفة اليهودية وفقيرًا للغاية، وغير معروف، ولم يكن قد بلغ "المقام الرفيع" في الدين، الذي بلغه فيما بعد، وفي إحدى المرات سافرا إلى اليونان – وفي بعض الروايات إلى تركيا – بعد أن وقعت عليه القرعة، التي أجرتها الجالية اليهودية، لاختيار أحدهم لجمع تبرعات اليهود، وقد رفض في البداية السفر لفقره الشديد. وبعد أن وقعت عليه القرعة ثلاث مرات، أدرك أن ذلك أمر إلهي له بالسفر، فذهب إلى الشاطئ ليركب السفينة، ولكنه لم يستطع أن يصعد إليها، لعدم امتلاكه لثمن السفر، فجلس على الشاطئ، وأخذ يقرأ في كتاب معه، فجاءت إحدى الأمواج، وسحبت الحصيرة، التي كان يجلس عليها إلى البحر! وعندما رأى البحارة ذلك المشهد، طلبوا منه الصعود إلى المركب، لكنه رفض، وسافر إلى تركيا في يوم واحد، في حين أن الرحلة تستغرق أربعة أيام! وفي اليونان نزل ضيفا على أحد أهالي المدينة، وتعجب الناس كيف يرسلون هذا الرجل الفقير، مع أنه في كل عام يأتي أحد كبار رجال الدين المشهورين، وفي أحد الأيام كان موكب الملك يمر من أمام المنزل، وكانت العادة أن يغلق الجميع أبواب المنازل أثناء سير الملك.. احتراما له، لكن رابى شموئيل رفض أن يفعل ذلك، وهو ما لفت انتباه الملك، وأمر حرسه بأن يحضروه، وبدلا من أن يسجنه أخذه إلى قصره، وتعجب الوزراء، وسألوا الملك، فأجابهم بأنه أحس بصلاحه، ورأى قرنين من النور يخرجان من رأسه، وقرر الملك أن يعطيه مالا أكثر من أي عام سابق، وعندما رجع إلى فلسطين بذلك المبلغ الضخم، لم تصدق الجالية اليهودية، وظنوا أنه حصل عليه بطرق غير مشروعة. بعد أيام حضر بعض الأفراد من اليونان، وسردوا نفس القصة، فصدقوه.

٢ دمنهور سميت كذلك بسبب الحرب بين الروم، وعمرو بن العاص بدمنهور، وكان الدم نهور (معجم البلدان)

أحد المعمرين يقول.. بعد أن فقد كل حواسه، ولم يتبق له سوى حكاية، رددها أكثر من مرة:

كان نصفها التحتاني مغروس في أرض القبر، دفعتُ نكلة للحكومة، عاشت "فردوس" سنتين، أوأكثر، كان الله قد غضب عليها، وكانت من عائلة ظالمة، ومسيحية، بعدها آمنت العائلة كلها، وأسلمت، الحمد لله بلدنا مسلمة!

مات رضيعها، وأمسكت "فردوس" حجاب الشيخ "فتوح"، ولمّا حان وقت العصر، بكت بين يديه، ثم قالت:

- ادعِ لي بالخلاص.

غسل "فتوح" جسده بدموع حقيقية، ورفع يديه بدعاء حقيقي، طلع السرّ الإلهي قبل أن يكمل دعاؤه، طبع قُبلة على جبينها، في هذه اللحظة، جرجرها حارس الحكومة بسهولة، ورمى "فتوح" حبوب الحجاب، وشاهد الخط بالورقة المستطيلة، ومضى.

ارتاحت البلد من فُرجة الناس، وكان النصف التحتاني مثل شمعة بيضاء.

تقول بعض النسوة اللاتي غسّلنها: كانت بكرًا مثل عذراء.

وكان أحد المشيعين قد استطاع قراءة الورقة المستطيلة.

- الله يخيّب الولد، وأمه.

ضحكة مكتومة قد انفلتت من القارئ، الذي لم يستطع تمالك نفسه.

٣

امتلأت العين ببكاء طال انتظاره، اغتنمت "تفيدة" فرصتها، وراحت تبكي أيامها، لم تكن تحسب أن للعين صنبور ماء يغُرق أفراحها وأحزانها، كل ما فعلته أنها ارتخت قليلاً، وتشنجت، وراحت في سبات عميق.. إلى أيامها التي غطتها بأبنائها، وبالتعب.

هزّتها رؤية "فتوح" واقفًا، طالبًا منها الكفّ عن البكاء، ساعتها، تذكّرتْ ماء غُسله، الذي تعاركت من أجله، كان هذا الماء هو كل إرثه، مات عن مئة، أو يزيد، لا أحد يعلم بعدد سنيّه، أما موته، فإن ماء غُسله شاهد.

رشّتْ ماء غُسله على عتبة الدار، ثم أغدقت حبيبات قليلة بصحنه، وبالغرف الأخرى، ثم مسحت قعر الإناء بخرقه نظيفة، ودخلت غرفتها، وخلعت قميصها التحتاني، وبللت جسدها كله، وما لبثت أن عاودها البكاء مرة أخرى، قالت لابنها زكي، الذي راح ينظر بشغف إلى تلك الحلمة البنية اللون، والجسد البض.. الأبيض، وتلك البطن المنفوخة، ودفن رأسها بذلك الصدر الوارم قليلاً.. كما كان يظن:

- ماء الكبير بركة.

وارتدت سواد الليل كله.. إلا الوجه المدور، الذي ما زال عليه بقية من بياض ونور، أحضرت المنقد، والقوالح الناشفة، وتحلق أولادها الصغار حول المنقد، الدخان حفر الوجوه الصغيرة ببعض

الدمعات، والسعلات، فانطفأت رغبتهم في السهر، حملتهم واحدًا بعد آخر، وتمتمت ببعض التعويذات المبهمة، وفرشت قلبها الواسع بدلاً من الحصير، وغطتهم بقبلتين، ولحاف ناقص الأطراف، ومهترئ.

كان زكي الولد الأكبر ينصت لقلب النار.. قلب المنقد، وقلب أمه الوارم بأشياء يود معرفتها، طقطقة النار بكاء، ونهنهة أمه غربال ينسج حكاية للموت مؤلمة، طقس الحكاية بكاء. الفرح كان في شوق الولد زكي للحكاية، أو إسكات نهنهة أمة، ألا يوجد في كل حكايات العالم لغة أخرى غير لغة الحزن والسكوت؟ هل للحكاية جسد كجسد وصدر أمه المنتفخ؟ هل يوجد جسد دون حكاية؟

كانت النار لزكي تولد الأسئلة، وصمت أمه يصنع دراما العمل، هو يعرف أنها ستحكي، ستحكي هاجسها فقط، المهم أن تبدأ الحكاية، هل يجوز له أن يرفض الحكاية؟ أم أن الحكاية قدر.. كقدره بين هذا الأب وتلك الأم، أو كاسمه الذي لم يختره؟ هذا ما كان الولد زكي يفكر فيه.

❊ ❊ ❊

خبط على باب "تفيدة"، والهواء البارد رسول للشتاء المُقدّر، وورق الشجر يستجير بالأرض ودفئها. السماء خالية إلا لمن يتطلع إليها، عن الطارق سألت "تفيدة"، فقط قال "فتوح" آمرًا:

- افتحي يا تفيدة.

وفى صحن الدار قعد "فتوح" مقرفصًا، يحكّ يديه ببعضهما، ونافخًا فيهما:

- ولعي النار يا بنت الكلب بسرعة.

القوالح رطبة، وبجوار "الكانون" حزمة من حطب القطن، وخشبات قليلة، أمسكت ورقة، ومن فتيل لمبة الجاز الصفيح أشعلت الحطب، يعبّ "فتوح" من النار، ويمسح وجهه، ثم يضع يديه على صدره فترات طويلة، ثم يمضي لحال سبيله.. مسرعًا دون وداع، أو تحية.

تفيدة، وسعيدة، ومرزوقة الحمزاوي يذهبن سويًا كل ليلة للبيع والشراء، لهن نصيب متساوٍ في رأس المال، بعد العِشَاء قسمن المكسب، وراحت كل واحدة إلى دارها، في بحر الليل دق الباب:

- يا تفيدة.

فتحت بابها لسعيدة.. الحاملة قفتها.

- تعالي.

بتوجس سألت "تفيدة"، ردت سعيدة:

- الخمسين[1].. قفة قطن إنما.. لُقطة!

- أنا حمدت ربنا على رزقه.

وقفلت بابها.

❊ ❊ ❊

---

١ الخمسين : حوض زراعي بالناحية الشرقية من قرية الدلجمون.. حوالي مائة فدان (من خرائط الوحدة الزراعية بالدلجمون).

في الخلاء يسكن الغجر، لهم موعد معروف للبلدة، نظرة واحدة منهم تكفي لعمل علاقة ما، خيامهم خوازيق في عين الخلاء، كما نهود بناتهم في خلاء الجسد، يتركون بناتهم للخلاء والشمس.

يتلثم الرجال عن عين النهار، والناس بخيمتهم، والماعز تسرح بها البنات بالغيطان البعيدة، والكلاب تنبح دائمًا بالليل والنهار، يتدثرون بجِرام من صوف الماعز، ويتدثرون بالنار من طلّ الليل.

تتزين البنت – أي بنت – بألوان فاقعة من الأصفر، والأحمر، والأخضر، وتتسوّر بغويشة بلاستيك، وبأذنها قرط له شكل معين، ومجموعة من الخرزات الملونة، والأحجار ملضومة تطوق الرقبة، وتتمنطق بحزام أسود عريض.

تلم المرأة الغجرية – أي امرأة – النبت الشيطاني الناشف، وفروع الشجر من رأس الغيطان. يحفرن حفرة بجوار الخيمة. يعجنّ، ويفردن عجينهن لعين الشمس، والهواء، ثم يضعنه على الركية، ترتدي المرأة الغجرية الملابس السوداء، وتتمنطق بحزام أسود عريض.

في موسم القطن، كان (الغجر) يلبسون جلبابًا واسعًا على اللحم، ويربطون وسطهم بحزام، ولمّا يهل القمر؛ يقطفون اللوزة البيضاء، ويضعونها بعبّهم، ينتقلون من غيط إلى غيط، ومن حوض إلى حوض.

بيت عبد العاطي على رأس الغيط.. بالناحية الأخرى، يظل دائمًا مستيقظًا.. حارسًا ما جمع من القطن. وضوء القمر يصنع خيالات

هنا وهناك، لم تستقر نفس عبد العاطي، مشى خطوات، سمع خشخشات، وصوت بشر، لمّا اقترب صاح، وهرول وراء الغجر بعصاه الغليظة.

بجوار العشة، كان أولاد عبد العاطي، انتفض الجسد النائم، وأمسك كل واحد ما طالته الأيدي.

فرّ الغجر، وكانت سعيدة ومرزوقة الحمزاوي تستعدان لحمل قفف القطن المملوءة، قال عبد العاطي:

- اربط أولاد الكلب في الشجرة؛ لحدّ ما يظهر لهم صاحب.

أسلمت سعيدة نفسها لجذع الشجرة، وكان بياض وخوف مرزوقة ينضحان بشيء ما، ظلّت مرزوقة تتمسح بمرسي.. ابن عبدالعاطي، نامت الأعين، إلا عين مرسي ومرزوقة، كان قلب مرسي قد رقّ، وسمح لنفسه حينما بكت أن يجفف دمعها بيديه الخشنتين بعض الشيء، وقعت يداه على صدرها المتماسك؛ فخرجت له طبيعة رغبتها في ارتعاشة خفيفة، من برودة الخلاء، تدثر بلمسة ثديها، هذه أول مرة يحس بصدر امرأة، حتى لو كانت خطأ، ومرزوقة تنظره من تحت دمعها المتقاطر، ومنّت نفسها بالعودة إلى بيتها، هل تصرخ؟ بمن تستنجد؟ والقمر يضيء وجه مرسي، ووجه مرزوقة، وكان كل شيء يشي بالجمال والهدوء، جلس مرسي بجانبها يرتعش، وسألها عن سبب سرقتها:

- سعيدة هي السبب.

وأشارت على النائمة، كان صوتها ضعيفًا، وأشارت له بخفض صوته الخشن، ساعتها فقط أحس برغبةٍ ما، ماذا لو قبلتُها؟ ربما تصرخ، ويكون مصيري جذع الشجرة! عيناها لمعتا، وصمتت، ثم قالت بنعومة:

- عيب!

انطلق مرسي يتحسس كل ما فيها، ومزق حمّالة الصدر، ودفن رأسه، الجسد كله قطعة من الشمع، كان طفلها لفترة، ومرزوقة – بأصابعها الطرية – تتحسس فروة رأسه، وقفاه،عرقت يداه، وانسحبت حتى آخر نقطة، مزق سروالها التحتاني، وكل ما تقوله مرزوقة:

- عيب أنا في مقام أمك!

كل ما كان يريده، أدركه الآن، ثم وضع يديه على شيء ثمين، وصمت لحظة، ثم، تمتم لنفسه بكلام، وضحك، ثم نسي أمره كله، وغاب في كشفه الأول، الذي سمع عنه كثيرًا، ثم خارت قواه، وكلما أنصت لصوت بكارته، ينتشي جسده برعشة، ثم يقوم يكرر ما فعله، ومرزوقة تستنجد بلهاثها، وتأوهها، دعكت سعيدة عينيها، وقالت:

- يا نهار أغبر!

سعيدة سوداء، وطويلة، فمها واسع، قدمها مفرطحة، ومشققة، أنفها طويل، صدرها مخفي عن عين الناس، وعن نفسها

أيضًا، جسدها كله ليس به بروز، عافها مرسي، وقد شلحت هدومها.

احتفظ مرسي بلباس مرزوقة الممزق، وابتسم، بطرف عينيها غمزت مرزوقة، فأدرك ما تعنيه، وقال:

- تعالي كل يوم.

أومأت له، وهمس بأنه سيعطيها قفتين من القطن كل يوم، ثم صمت قليلاً، والتصق بها، وقال:

- تعالي وحدك.

وفكهما، باسته سعيدة، مسح صدغه بيديه، بعدما قالت سعيدة بفرحة:

- ربنا يخليك يا مرسي.

لكن مرزوقة أمسكت يديه، وباستهما، ثم احتضنته مبتسمة.

في اليوم التالي؛ كانت "تفيدة" تحمل صغارها، وتفلي رؤوسهم، وهم نائمون، و"فتوح" يعبّ من قصعة النار الدفء، بصوت هامس قال:

- جعان.

جلبت تفيدة العيش الطري، والمدمس، والبطاطس.

- اعمل لك شاي؟!

شرب "فتوح"، وقال:

- قالوا لي تعالى، قفة قطن.. هأ

وسياق كلامه يتطلب تدخل تفيدة بسؤال يضمن لها مشاركته، لكنه لا يود مشاركة أحدٍ الآن؛ فقال كلامًا يخصّه وحده، تحاول تفيدة أن تفك لغز كلامه، أكمل "فتوح" كلامه:

- على كل حال.. أنا اخترت الستر.

- الستر حلو!

وظل "فتوح" لا يود مشاركة أحدٍ، و"تفيدة" تستمع إليه بغير رغبة أكيدة، فقط تخاف منه، وتلبي طلباته، ولم تستطع أن تقوم لشغل بيتها.

❊ ❊ ❊

كان نصر، وتفيدة، وأبو النصر، وامرأته يعيشون معًا.. بدار من الطين، كل أسرة بغرفة، "نصر" يعمل "تبّاعًا"، وأبو النصر سائق على عربة بموتور، قرب الفجر رن صوت المعلم عبد العزيز، وخمش السكون:

- يا ولد يا نصر.

أطلت امرأة أبي النصر بقميصها التحتاني.. المشغول بالترتر، وعلى وجهها نوم كان متقطعًا.

- عاوز نصر الغني؟!

- عاوز نصر الواقف على باب الله!

رد المعلم عبد العزيز، وابتسم في وجه الفجر، ومعه "نصر".

❊ ❊ ❊

كان قلب "أمينة" يسع كل رواد قهوتها، و"فتوح" يمر عليها يوميًا، يشرب قهوته، ويتفلها، ويسكب الماء هنا وهناك، وحين ينتهي تأتي له "أمينة" بغيره، ينقصها شيء إن لم يأت، وهو يُخسّرها سبع طلبات يوميًا، (هو مجنون؟ يمكن.. أكيد مجنون) كان "نصر" الفقير يقول لنفسه، ولعاب "فتوح" ينزل على هدومه المتسخة، يبص له من تحت لتحت، تركه "نصر"، وعاد إلى بيته، فوجد "فتوح" جالسًا بصحن البيت على الحصير، كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب، و"نصر" يُجزم بتخاريف الرجل، ويثبتها في نفسه، فتوح قال:

- وصلني.

(طلب غريب من رجل غريب! هل هو خائف؟ هو يمشى دائمًا وحده، ياه! هذا المجنون لا أطيقه) أفاق من شروده حينما زعقت "تفيدة" في وجهه، وكان "فتوح" في الشارع، لحقه "نصر"، وفتوح يسبقه بخطوات كثيرة، بزقاق جامع العمري ينام "فتوح"، قال "فتوح":

- ارجع أنت.

وكان بينه وبين الجامع مائة متر، وبينه وبين بداية الشارع مائة متر، عرج "فتوح" بخطوه يمينًا، وشمالاً، وحين همّ "نصر" بالعودة؛ كان الشارع مسدودًا بأجساد بشرية، تزحزح يمينًا، وشمالاً، رجلان، وامرأة، لم يتكلم، ولم يصرخ، فقط رمى نفسه داخل بيت مفتوح نصف فتحة، واصطدم بجسد امرأة عجوز.

- يا ابني.. يا ابني!

"نصر" صامت، يرتعش من فرط المفاجأة، لم يكن يومًا ما خوافًا، لكنه تهته:

- واحدة..

وغاب في تهتهته.

* * *

كان أمر النداهة مسيطرًا على كل المشاعر في الليل، وعلى شارع النصارى، وتلك المرأة التي تترك قفتها وسط الطريق، وأرانبها البيضاء – ترقع سواد الليل – تقفز هنا وهناك، وحين تلمح المرأة أي قادم؛ تطلب لم أرانبها، ساعتها يكون الموت، أو الخرس هو المرادف، حتى أن عطيات – التي تسكن بشارع النصارى.. بجوار البحر – ماتت بعد عشرة أيام، كانت الأرانب خمسة فقط، لمّتها، ووضعتها في القفة، ساعتها وجدت الأرانب أكثر بكثير من معرفتها بالأرقام، ظلّت طوال الليل على تلك الحالة، وقرب الفجر كان كل شيء قد اختفى مع الليل، وتذكّر"نصر" في هذه اللحظة حكاية جدته، التي كانت تحكيها له دائمًا:

بعد صلاة العشاء، اتفق "العريان" مع صاحبه "صالح".

- طيّب.. قبل الفجر ناد عليّ.

وترك شباكه، وكل عدته وراء بابه.

- يا عريان.. تأخرنا على الصيد.

حمل العريان شباكه، وكان قد قرأ الفاتحة، ومضى.

خلع "العريان" هدومه، ورمى شباكه، وانتظر على شط الترعة.. بحوض الخمسين، وعلى ضوء فتيل الجاز، لمح أرجل صاحبه، رآها كحوافر الماعز (عفريت) قال، وسمح لنفسه بكتم خوفه، ارتعش قليلاً، وقال:

- انزل أنت يا صالح.

ولبث قليلاً يحاور أحاسيسه، ويستنهض أفكاره، بعدما لبس هدومه على عجل، وفكر أن يجري، قدمه مسمّرة، لو جرى سيلحقه، غطس "صالح"، ورمى في وجه "العريان" كل أنواع السمك بكثرة، وملأ "العريان" جوالين من السمك، لفّ "صالح" سيجارة، وأشعلها من الفتيلة، وشوى بعض السمكات، وكان "العريان" ينظره، وهو يأكل السمكات نصف مشوية.

- يا عريان، تركبني الأول، وأركبك بعدها؟!

- اركبك الأول.

ركبه "العريان"، وتمكن من ظهره، وغرز مسلته بقفاه، وانطلق حتى باب البيت، نادى "العريان" زوجته، ورمى الجوالين، نزل، وقفل الباب بسرعة، حينئذ دق صاحبه "صالح" الباب، نظر "العريان" لقدمه أولاً، وحكى له ما جرى، أعطاه نصيبه، وجلس معه حتى الضحى، صباحًا، كانت زوجة "العريان" تنادي:

- سمك العفاريت يا سمك!

كان الليل للحشاشين، ولورق الكوتشينة، وللحكايات المسيطرة، والمكبّلة لخطوات الناس، لهم ليل البيوت، ونهار الشمس.

❊ ❊ ❊

حملت المرأة العجوز فتيل الجاز، وخرجت، و"نصر" خلفها يتهته: واحدة، قالت المرأة العجوز:

- هو أنت يا شيخ فتوح؟!

نظر "فتوح" لنصر نظرة طويلة، وأمسك معصمه، وقال:

- تعال أوصلك لتفيدة.

صباحًا، قال "فتوح" لأمينة، و"نصر" يدخن "الجوزة":

- كانوا واقفين لي.. في الشارع.

نظرته "أمينة" بعين الصدق، والريبة، وكأنها تسأل، أكمل كلامه دون عائق بشري:

- لكن أخذت حقي.

هزّت المشاعر "نصر" الفقير ساعتها، وحدّث نفسه: (درويش مخفي.. الصادق والكذاب مثل بعض، وعلى الواحد أن يأخذهما في سلّة واحدة. الواحد ما يعرف يفرق بينهم)

❊ ❊ ❊

كان زكي يستمع إلى تلك الحكايات مرة من "تفيدة"، ومرة من أبيه "نصر"، ولمّا شبّ عن الطوق؛ سمع نفس الحكاية من مرزوقة، ومن سعيدة، وكل واحدة منهن تجزم: إنها لم تتعامل مع الغجر.

عادت الأسئلة مرة أخرى، بعد ما شيع زكى أمه "تفيدة" إلى قبرها، وبعدما قرأ الفاتحة على روح أبيه. وعادت أمه إلى هيئتها الأولى، وهي ترش ماء غُسل "فتوح"، وعادت النار التي ولدت الأسئلة، فتوح.. فتوح. هل يجوز لي أن أرفض الحكاية، أم أن الحكاية قدر كقدري بين هذا الأب، وتلك الأم، أو كاسمي الذي لم أختره؟ ألا يوجد في كل حكايات العالم لغة أخرى؟ هل للحكاية جسد كجسد أمه، وصدرها المنتفخ؟ هل يوجد جسد دون حكاية؟!

قبض مرسي عبد العاطي على يد زكي بقوة، وتصلّبتْ العيون لفترة، فتذكّر زكي حكاية مرسي مع المرأة، التي رُبطت في جذع الشجرة، وفكّها بعدما مارس معها لعبة الجسد، وأدرك أن تلك النظرة تعني في المقام الأول أمه "تفيدة"، وكان زكي قد عزم على أن يرش ماء غُسل أمه في مدخل البيت، وبالغرف، عاد بسرعة، وحمل ماء غُسلها، وسكبه بدورة المياه، ولم ينتظر.

هذا ما حكاه زكي ،وهو على فراش الموت.

٤

نفّضوا صمتهم الجميل، وجلستهم المفعمة بالسكينة، والهدوء، وانتصبوا للقادمين، صافحوا الأستاذ "إبراهيم القصبي"، ومن بعده"صبحي سعيد"، وآخرين، المصافحان يُقبّلان يمينهما، ثم تُطبع قُبّلة على جبين الأستاذ إبراهيم، وإبراهيم يطبع قُبّلة على جبين مصافحه، وهكذا دواليك، وصبحي يفعل مثل صاحبه إبراهيم. هذه أول مرة يجلس في جلسة ذكر.

جلس الجميع على الحصير، وارتكنوا على الجدران بالغرفة الواسعة، والمسقوفة بالبوص، والملطخة ببقع من الجير الملون والباهت. نظر "صبحي سعيد" خلسة إلى الرؤوس المعممة بعمامة سوداء، وبعض الذاكرين يكتسون جلبابًا أسود، وأوراد "سيدي فتوح" موضوعة بالمنتصف.

ابتدأت الجلسة بالتشهد، وأمسك "إسماعيل الديب" بدفّة الغرفة، وأمرهم بقراءة الفاتحة للنبي وآل البيت، ولشيخهم، ولهذا الجمع، وأبناء "سيدي فتوح"، بعدها تمايلت الأعناق، واهتزت على أنغام وِرد الشيخ وأشعاره، والذاكرون يرددون بيتًا من الشعر يتكرر كل بيتين أو ثلاثة طوال الإنشاد، وملأوا بطونهم بـ"فتة العدس".. نفحة اليوم، وشربوا الشاي، وتناوبوا المعسل، ووضعوا البخور فوق الجمرات، وانفصلوا عن ما يشغل الناس خارج جدران الغرفة، الغمامة التي كستهم، توحدهم مع رب الكون، لا

يرون إلا الغمامة، التي تُذكّرهم ببداية الخلق، والعرش، ولا يشمّون إلا ريح الجنة، ولا يسمعون إلا كلمة الله، ذابت أجسادهم في الغمامة، هم جسد واحد لرب واحد، عطس "صبحي سعيد" – يرحمك الله – وسعل، فقام وفتح الشباك المغلق، وتمتم بغضب، الشباك على منور داخلي، فخرج الدخان ببطء، ثم انقشع، نظر الذاكرون لبعضهم البعض، بعدها قرأوا بصوت واحد، وخشعت الجوارح لصوت متناغم، وجهوري.

(اللهم إني أسألك بسرّ الذات، وبذات السرّ، وهو أنت، وأنت هو، لا الله إلا أنت. احتجبت بنور الله، وبنور عرش الله، وبكل اسم لله. من عدوى، وعدو الله، ومن شر كل خلق الله. بمائة ألف ألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ ختمتُ على نفسي، وديني، وأهلي، ومالي، وجميع ما أعطاني ربي بخاتم الله.. الملك، القدوس، المنيع، الذي ختم به على أقطار السماوات والأرض، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على خير خلقه.. سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين).

وأمّنوا على حزبهم، وختموا جلستهم بالإنشاد مرة أخرى، وبألف صلاة على النبي، وقراءة الفاتحة للنبي، وآل البيت، ولشيخهم "سيدي فتوح"، ولهذا الجمع، وأبناء الشيخ. بعدها تسامروا بالحكايات، وكرامة شيخهم.

استند "الحسيني" على جدار الغرفة، وحكى، وأول الحكاية الصلاة على النبي.

استند أبي "هزع"على عكازه، منتعلاً فردتين مختلفتين من "الشباشب" الملقاة بجوار السرير النحاسي. كان قد رأى "سيدي فتوح" رأي العين، وسمع صوته يناديه، فقام يحقق النداء. هو نداء الوصل.. ليس إلا. طاف أبي حول مقام "سيدي فتوح"، وصلى ركعتين، ومسح وجهه المتعب بدعاء، وعاد إلى فرشته راضيًا.. مرتعدة مفاصله.

كان الوقت صيفًا، حتى بردتْ أطرافه. دثرته بعدما تحسستُ جبهته، وقعدتُ بجواره، منتظرًا بعض وصاياه، أو قسمة إرثه، ومسحتُ عن جبهته العرق، وقلتُ:

- تشهّد يا حاج.. تشهّد: لا إله إلا الله.

ووضعتُ مسندًا تحت رأسه، بعد ما استفاق قال:

- أبو سفاية..عارفه؟!

أومأ الحسيني برأسه الغارقة في حقيقة الموت، وشكل عزرائيل، وماهية الروح.

- الله يدفسه! أفشى سر سيدي فتوح، فمات.

صوت الحاج "هزع" ضعيف، وجبينه يتلألأ بنور خفي – هل لذكر فتوح علاقة بذلك؟! – وأكمل حديثه، والحسيني يضع أذنيه على حنك أبيه.

امتلأ الحرم النبوي بالزوار. ووقف فتوح تجاه قبر الرسول.. متخذًا القبلة المكرمة اتجاهه، ارتعدت مفاصل "سيدي فتوح"، وتمتم بصوت لا يسمعه غيّره.

- السلام عليك يا جدي.. يا رسول الله.

- عليك السلام يا ولدي.

كان الرد منطوقًا بكل اللهجات واللغات، وأنا – العبد الفقير – واحد منهم، ساعتها؛ جثا "سيدي فتوح" على ركبتيه، وبكى بحرارة، ثم أنشد شعرًا، وقد حفظته، والزوار أيضًا.. كُلٌ بلغته، ولهجته.

في حالة البُعد روحي كنتُ أرسلها

وهذه دولة الأشباح قد حضرتْ

فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

- هل يقرأ، أو يكتب يا حاج؟!

- العلم عند الله.

ومن داخل القبر، وأمام أعيننا؛ خرجت اليد الشريفة.. ناصعة وبيضاء، قبّلها "سيدي فتوح"، واختفى، ولم أره بعد ذلك أبدًا، بعدها بأسبوع، جاءني "سيدي فتوح" ثلاثًا في منامي – قبل رجوعي من الحج – وأوصاني، وقد حفظت وصيته عن ظهر قلب، وكتبتها.

- أنت لا تعرف الكتابة، ولا القراءة يا حاج.

- رسمتها كما رأيتها في منامي، هاتها من الدولاب، واقرأها.

وأمسك "الحسيني" الورقة، ودارت على الجميع.

- الله.. الله. كمّل يا حاج.

بعدها توجع الحاج قليلاً، وشخص ببصره لسقف الغرفة، وتمتم ببعض الكلمات، وزعق باسم "سيدي فتوح"، ومات.

- الله يرحمك يا حاج!

ومسح "الحسيني" دمعه بكُم جلبابه، بفرح قال أولهم، وعلى وجهه بسمة تخفي غيرته:

- المفروض تفرح!

وقال آخرهم، وهو يمسح وجهه المتسخ برماد المنقد:

- اكتبها لي يا رب.

وأمّنوا.. معلنين موافقتهم بهزّ العمامات السوداء، والرؤوس محملة على أجساد خالية إلا من شيخهم "فتوح"، بعدها قام "إسماعيل الديب" إلى "الحسيني"، وقرّبه لصدره الواسع، ووضع يده اليمنى على رأسه، وتمتم بتعويذة، وهو مغمض العينين.

غابت كل الحكايات المفترضة، والحقيقية، وكان السكون، وتحولت الأجساد إلى قطع متناثرة كالحجارة. وبين لحظة وأخرى ينطق حجر معلق في الملكوت: الله، ولقفت الأيدي أوراد "سيدي فتوح"، وكانت جمرات المنقد ما زالت متوهجة، ورمى "إسماعيل الديب" حفنة من البخور، وتمايلت الأعناق، واهتزت على ورد الشيخ، وأشعاره، وقرأوا حزب السرّ مرة أخرى، وختموا جلستهم بالإنشاد مرة أخرى، وبألف صلاة على النبي، وآل البيت، وقرأوا الفاتحة لشيخهم "سيدي فتوح"، ولهذا الجمع، بعدها، تسامروا بالحكايات، وكرامة شيخهم.

بعدها، حكى محسن إسماعيل الساعاتي – الغريب عن البلد – الممتلئ الجسد، والمكسو بابتسامة صافية، والذي أنفق السنين في لضم قصيدة من الشعر، لكنه أيقن أن شيطان الشعر لا يُعيره أي

اهتمام، فظن أن الشيطان يخشاه، واعتقد أنه مثل الملائكة، ومن يومها؛ وهو يسأل نفسه دائمًا في كل شيء، وغالبًا لا يجد الإجابة، يدخل من سؤال إلى سؤال، ولا يريد إجابة من أحد، وحينما أصبح من المُريدين؛ بدأ يحكى الكرامات، ويضيف إليها رأيًا عندما يتوقف عن الحديث.. ربما رأيه، أو ربما يكون قرأه في كتاب، أو سمعه من أحد.

كانت بعض الدمعات المحتبسة قد خرجت من عينيه العسليتين، وطالت خدّيه، وانزلقت مرغمة فوق المنقد – الذي يجلس بجانبه – فازداد اشتعالاً، فهلل الحضور ببركة "سيدي فتوح"، وأجزموا برعايته لهم، وحضوره وسطهم، وكان "محسن" قد رطّب فمه الواسع بتمتمات، وأدعية، وقراءة قصار السور، وورد الشيخ، بعدها نطق أول جملة بصعوبة:

- المجنون أهو!

ابتسم "صبحي سعيد" خلسة لنفسه، ووجد لظنه مرتعًا خصبًا.. متنقلاً فيه بيقينه، واستعدّ للاستمتاع أو المجادلة، ونظر لصاحبه إبراهيم القصبي المركون على الجدار المبقع، والباهت، والغائب عن الأجساد بحضور الحكاية، وشيخه "سيدي فتوح"، قطع محسن الساعاتي ظن صبحي سعيد، وأكمل حكايته:

وجسد "سيدي فتوح" عارٍ، ومباح للصغار، يرجمونه بالطوب، ويقطعون خطواته، وكان نقطة صغيرة وسطهم، لكنها كانت مضيئة، ساعتها نظر للسماء، وأغمض عينه، رافعًا رأسه للأعلى،

وقابضًا على كلام العيال كأغنية وصل للخالق، وانتشى جسده الملسوع بقراطيس التراب، والطوب، ومسح رأسه من الدم القاني، ودلّك – بالدم – جسده كله، بعد مدة، هش العيال عن جسده مرغمًا، صارخًا فيهم بنداء مرتخ، العيال أصابهم الخوف، وجروا إلا واحدًا.. شامخًا برجم الشيخ، ومتعلقًا به، وراشفًا التأوهات الخافتة بلذة. ناداه "سيدي فتوح" فاستجاب، باسه سيدي – وسيد السامعين – وأعطاه نكلة، وأمره بالعودة إلى بيته.

صمت "محسن" لحظات، وأخذ نفسًا طويلاً من مبسم "الجوزة".

- كمّل.. كمّل الحكاية.

الولد اسمه عطية الحصاوي، انقطع عن الكُتّاب، ولازم سيدي. وفي يوم حجل عطية متخبطًا ذات اليمين، وذات الشمال، وحاملاً أمر "سيدي فتوح" على كتفه الطري، عرج الولد على سطح بيته، نكش الحطب، وحمل بيضتين، وسار متلهفًا للشيخ، لمحت روحية ابنها، وهو يخبئ شيئًا بسرواله، حينما انتهت روحية من حروف النداء، كان عطية قد وصل لحضن الشيخ، لقد لمحتْ عطية أكثر من مرة يُخبئ كيزان الذرة، والعيش البتاوي، سألت نفسها عن السبب، لكنها لم تعرف الإجابة، وتذكّرتْ أنه كان بالسطح، فخافت على أفراخها. وقامت وجلة – فهي تنعي حظها من أفراخها التي لا تبيض – ونكشتْ الحطب بهمّة.

- ابن الكلب بياخد البيض كل يوم للشيخ الزفت ده.

وقبل أن تبدأ بعدّ أفراخها، وجدت كومًا من البيض.

عطية لا يدخل البيت إلا للأكل، أو النوم، غاب ليلة عن فراشه، وغلب روحية النوم بعد طول الانتظار، صباحًا سألته:

- كنت نايم مع الشيخ؟

ارتابت، وخافت، وقامت غاضبة تسبّ الشيخ في نفسها، وتلعن يوم أن حطّت رجلاه البلد، ولمّا وصلت إلى الشيخ قالت:

- خيبت ابني، الله يخيبك يا بعيد! لا بيروح الكُتاب، ولا بينام في البيت.

نظر الشيخ، وأشاح لها بيديه، وغطى عورته الظاهرة، وقال:

- عطية مش ابنك، ده ابني من يوم حادثة الثور.

- يا لهوي!

ونكّستْ رأسها، وخارت قواها، ووقعت مرغمة، كان جسدها بين أقدام الشيخ، وعقلها يجمع تفاصيل الحكاية (منين عرف؟ كنت وحدي!) وتذكّرتْ الحكاية بكل تفاصيلها:

"كانت بالزريبة، تضع العليق للبهائم، وابنها بجوارها، ماسكًا ذيل جلبابها الكالح، والممزق من تحت الإبط، وفوق السُرّة، وفي لمح البصر كان الولد على قرن الثور، كتمت صرختها، وأدركت أنها ولاّدة للموت، عطية – فقط – هو الذي تخطى الموت، يد خفية تدفع الثور بعيدًا، حتى انقلب، وتلقفت الولد، والثور الآن لا ينفع إلا الجزار.. الأشموني، الذي فقد رأس ماله كله في شراء البهائم

المعطوبة، أخذ الأشموني الثور.. نفحة أو عقيقة لحياة الولد، تذكرت، واستعاذت، ورجعت فرحة لدارها".

ظل عطية ملازمًا للشيخ، ماتت روحية، وعطية لم يبكٍ. فقط كان يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن "سيدي فتوح"، شيّعها عطية مرغمًا، وعاد، قابله الشيخ بابتسامة، ودثره بحضنه، كان حضن الشيخ كرحم روحية، وكلما حاول الشيخ إبعاد عطية عن – رحم روحية – صدره، كلما تمسّك الولد بذلك العالم الرحب، فصله عن صدره بقوة، وكساه بنظرة حانية، وباسه فوق الجبهة، وقال:

- طلّقت العاطفة، أنت في الطريق.

الولد عطية لم يعر "سيدي فتوح" أي اهتمام، ولم تصدر عنه أي حركة تدل على أنه فاهم، كل ما يريده أن يلتصق بالشيخ إلى الأبد.

تحسس الشيخ جسد الفتى، ارتجف، وأغمض عينيه، وقطب جبينه على ألم (الجسد حجاب، نعم، هو أداة) قال لنفسه، وتأبط الشيخ الفتى، ومشى خطوات، لكنه توقف، وقال:

- عيب أن يكون بينك وبين الله حجاب.

لم يفهم الفتى مُراد الشيخ، لكنه نكّس رأسه برضا، ولفّ معه على كل خرابات البلدة، بعدها أنام الشيخ الفتى بغرفته، وأمره بقراءة الفاتحة، وبألف صلاة على النبي، وآل البيت، انتهى الفتى مما أمره. كان الفتى ما زال مستيقظًا، فأمره بألف ألف صلاة على النبي، وآل البيت، حتى تشقق لسان الفتى، ونسي ما حوله، أطلق

الشيخ بخوره، وتمتم بتعاويذ، وقرأ على جسد الفتى الغائب، وتحسس جسده كله؛ حتى وصل إلى العانة التي نبت بها الشعر، قال الشيخ لنفسه: (اختارتك المشيئة كما اختارتني! يا ابن الطريق، كن لنا، نكن لك) وقبض بقوة على الخصيتين، وفعصهما.

بعد أيام كثيرة قام الفتى يتخبط في مشيته، وانحنى، وكانت نظراته تتخبط مثل خطواته. قال له الشيخ:

- لازم تشوف السما، في الليل، والنهار.

خلع الفتى سقف بيته، لكنه استوحش رقدته؛ فحلّ مع الشيخ أينما كان، ساعتها سأله الشيخ:

- عايز إيه؟

- أكون معاك؟

(أين اختفى) بحث عنه، لا، لقد كان يبحث عن نفسه. لفّ كل خرابات البلدة، أخذ عزاء شيخه. كان هو صاحب المأتم، والمُعزّين (لو أجده ميتا أستريح!) لكنه يئس، وأحس لأول مرة بفقدان أمه.. فبكى.

عاد الشيخ، قابله الفتى بصمت، وفتور، وجلس بجانبه، وفي عينيه ذلة وانكسار، قال الشيخ حديثًا طويلاً عن الجسد، حدّث الفتى نفسه: (عشت حياتك، وجربتها، أنت خلبوص) قام الشيخ، وصفعه.

- إوعى تستصغرنا في نظرك! لنا مملكة في الأرض، وفي السما.

ظل الفتى صامتًا، مُتحسسًا خدّه، لم يبك، فقط نظر للشيخ نظرة، قطعت وتين العلاقة، ارتعد الشيخ، وانزوى لحائط البكاء، ونترت العينان دمعات، بكى الفتى لبكاء الشيخ، وجلسا جنبًا لجنب، وانغمسا في عتاب صامت، ومن ثم ألقى الفتى بنفسه في حضن الشيخ، وظلا هكذا مدة، باسه الشيخ فوق جبهته، وقال:

- اسمع الكلام.

- حاضر.

وظلّ بصدر الشيخ.

❊ ❊ ❊

قطع الشيخ عودًا من البوص الإفرنجي، وألقاه أمامه، وأتى بصفيحتين، ربط الولد – بحبل مفتول من الكتان – الصفيحتين بطرفي البوصة، ودار على بيوت البلّدة، يحمل خراءها، ويرميه فوق "رطش" الغيطان البعيدة، باركته الأرض، وحاولت النسوة إعطاءه صابونة، لكنه رفض كما أمره الشيخ.

في البداية تقيأ ما في جوفه، بعدها استسلم للرائحة، وظل هكذا مدة، وفي كل مرة يعود وقت الغروب لشيخه بما لصق في جسده.. دون أن يغتسل، وكان الشيخ يقابله بابتسامة، ثم يتركه للراحة.

الفتى يحمل الآن ثلاثة عشر عامًا، وكانت ملابسه قد أصابها العطب؛ فأمره الشيخ بترقيعها، وكان الفتى يتمنى جلبابًا جديدًا،

ولمّا شاخ النهار رجعت الناس والبهائم للبيوت مرغمين، في تلك اللحظة سأله الشيخ:

- عايز إيه؟

صمت الفتى، ثم نظر إليه، ونكس رأسه، وقال:

- مفيش حاجة.

باسه الشيخ، وقد برقت عيناه، والفتى صامت، بعدها أحضر الشيخ لوحًا، وبدأ يُعلم الفتى القراءة والكتابة، وحفَّظه القرآن، والأحاديث، بعد مدة لاحظ الشيخ بعض الكتب مع الفتى، ووجده منغمسًا في القراءة.

***

قطع "صبحي سعيد" سيرة الفتى والشيخ، وكان الغضب المكتوم قد بلغ الحلقوم، فزعق رغمًا عنه:

- دي قسوة، وإهانة!

نظرت الرؤوس المعممة بعمامة سوداء لبعضها البعض، ثم نظرت لـ"إسماعيل الديب" نظرة تعني الأمر بالكلام، نظر "إسماعيل الديب" إليهم بنظرة تعني الموافقة، ثم نطق اثنان منهما في نفس واحد:

- القسوة لين، واللين حب.

- الولد خسر طفولته.

- المصطفى لا يختار، يُختار يا أستاذ صبحي.

- ده مش معقول، ده جنان، وجهل بأبسط أمور العقل.

- عقل إيه يا أستاذ؟ العقل محدود.

- العلم الحديث بيقول...

- لا حديث، ولا قديم يا أستاذ، اللهم افتح بيننا وبين قومنا بالحق.

رد الجميع:

- آمين.. مدد يا سيدي فتوح.. مدد.

فاض الكيل بـ"صبحي سعيد" فنتر نفسه:

- آه، لو الولد عطية عرف أن سيدكم فتوح خصاه!

- ومين أدراك إنه ما يعرفش.

- يا أستاذ.. ابن الطريق له التسليم والرضا.

- يا عم كمّل.. كمّل الحكاية.

لملم "محسن" أنفاسه اللاهثة، وابتسم لصبحي، وأكمل الحكاية.

كل الأعمال الدنيا قام بها الفتى، لا يشعر بإهانة، أو ذل، وليست له رغبة في الجزاء، أو العقاب، ولا حتى كلمة شكر، حتى تخلص مما يشعر به البشر، ساعتها فارق الطفولة، والصبى.

شاع خبر "سيدي فتوح" في أرجاء المعمورة، فأتى العلماء من الأزهر راكبين بغالهم، وعلومهم، كان الشيخ فوق سطح بيته، أطلّ برأسه عليهم حتى لمحوه، وحين تبسموا في وجهه، بال عليهم.. تركوه، وأجزموا بجنانه، وصلوا الجمعة، بعد الصلاة حدثوه بحديث الناس، وأنه لا يصلي حتى الجمعة، وإن صلى فبغير وضوء،

ناوشهم، حتى لمحوا فيه بصيرة، فسألوه في القرآن، والأحاديث، والفقه، وسائر العلوم، حتى كلّت الأسئلة من إجاباته، وقبل أن يمضوا – وكانوا قد عزموا على تركه وشأنه – قال:

- كل المصاحف اللي معاكم.. فيها غلط.

- إزاي؟

- افتح المصحف، هات سورة.... الآية ٨

وذكر صواب الآية، ساعتها تركوه وشأنه، ولقبوه بالسطوحي المبروك. وكانت الآية مكتوبة خطأ.. غلطة وراق، ونساخ، وبعد أن عاد العلماء من حيث أتوا، نادى على عطية، وقال له وهو يلوح له بعصا خيزران:

- علمتك القرآن، وسائر العلوم، ده علم الشريعة، أما علم الحقيقة فليس له إلا الله.

وظل يردد: الله؛ حتى فني فيها، ليلاً، بعدما نام عطية، أيقظه بالخيزرانة، وظل يضربه، وهو يقول:

- سيب اللي علمته لك، وخليك ورايا.

أدمى الجسد، وفقد عطية الوعي، ومع كل خيزرانة يردد – كان – الله، ثم جلس الشيخ يبكي، هو ليس بكاءً بشريًا، ولا هو فرح، أو ألم، عيناه – فقط – كانتا تفقدان بعض بريقهما، ودموعهما، وعطية قد أدرك منذ البداية: أن الإشارة تأتي من خلال الإهانة، أو تعذيب الجسد، فكان يشعر بكل السكينة والهدوء، ويحق له أن يقول للكون – لا للبشر – إنه في الطريق.

الأشـياء التي يمكـن قياسـها – بـالطول والعـرض والارتفـاع أو الـوزن – ولمسها لا تختفي فجأة عن عيون الكائنات، ولا يمكن لها تبديل هيئتها، فكيف يلعب الشيخ مع عطية لعبة الاختفاء؟ هل يقصد الإثارة؟ أم أن الغياب، والحضور تجربة يمكن قياسها؟ ربما، لكنه يثير باختفائه المرة تلو المرة كثيرًا من الهواجس، والأسئلة، حتى الكائنات التي تعودتْ على شمه، أو لمسه، أو رؤيته، بدّلتْ طريقة حياتها رغمًا عنها، بعدما قبضتْ على وجع فراقه بقوة، فالكائنات الليلية تظهر نهارًا، والنهارية تظهر ليلاً، والنجوم خَفَتَ ضياؤها، والشمس كسوفة طوال النهار.

حاول عطية أن يستدل على الشيخ (لا يحق في السؤال، السؤال بداية الشك) عاد الشيخ، وجلس صامتًا، وأخرج من جيوبه رغيفًا مغموسًا ببعض الخراء، وقطعًا من اللحم.. كأنها جيفة نتنة، مدّ عطية يديه، وألقم فمه، أكل عطية حتى شبع، وأدرك مراد شيخه، وابتسم، بعد غروب شمس هذا اليوم قال الشيخ:

- استر نفسك بنفسك، واحفظ سرّك، السرّ ديمًا لواحد، وخلِّي بالك من الحرامي.

الكلمات المنطوقة ناقصة، لا يمكن لها احتواء تجربة، أو معنى، أو إحساس، هي زائدة عن الحاجة، حقيقة الأشياء في ذاتها، معرفة الشيء بلمسه، أو بشمه، أو برؤيته، أو بتذوقه. الكلمة تحمل كل الأمراض التي ليس لها علاج، والبشر يصنعون الأشياء الزائدة

بمهارة، ويتمسكون بها وجوهر الحضارة الآن، أما حقيقة الأشياء – التي كما هي – فإنها جوهر التخلف.

كان عطية قد تعود على صمت الشيخ، لكنه كان شغوفًا بكلمات الشيخ القليلة، كان يستمع لشيخه، ويطيعه، ولا يعرف الفروق اللغوية، وما تحويه من معان، كان فقط يود أن يرى الحرامي – الذي نطق به الشيخ – ويلمسه بنفسه، الكلمات دائمًا تخونه، وتجد صعوبة لتصبح منطوقة، كل أصوات الكون تصيبه برجفة، وفرحة في آن واحد، ولما يحاول تقليد صوت عصفور، أو كلب، كان يعتقد أنه أصبح عصفورًا حقيقيًا، أو كلبًا، ذلك هو يقينه، ولا شيء آخر.

ارتعد الشيخ، ربما من الكلمات القليلة التي قالها، وربما يكون مجبورًا عليها، الإفصاح عن مكنون الأشياء خطأ، ربما يكون الشيخ قد فكر في هذا، لكن الأكيد أن الحمى تقتص منه، وعطية لم يفعل أي شيء غير مسح العرق عن جبين شيخه، وقبل الفجر كانت الحمى قد زادت عن الحد، وكان الشيخ يتمتم بكلام ضعيف:

- خد مني لبكرة زاد.

(عليّ بحفظ ما يقول، السرّ سرّ، والجهر هو لي) حدّث عطية نفسه، ساعتها قام الشيخ، ونظر لابن الطريق، ولم يتبادلا الحديث إلا حينما أعلن الشيخ رغبته، وهمّ بالرحيل.

- على فين يا شيخي؟!

كان سؤال عطية على استحياء.

- الإشارة وصلت.

وإجابة الشيخ مبهمة.

تعودتْ العين، وتعوّد الجسد على المكان (هل المكان جُرم، أم أن التعود جُرم أكبر؟ هي تجربة أخرى، ولكن الإشارة لم تصل جسدي كما تعودتُ) هكذا حدّث عطية نفسه، وهو يضع بعض الخبز المتعفن في صُرّة الشيخ، التفت الشيخ له، وقال:

- الزاد هو الله.

فترك عطية الصُرّة، بعدها أمره الشيخ بحمل صفيحة قديمة، وشراء قُلّة.

عودًا طويلاً من البوص الأفرنجي قطعه الشيخ منذ مدة، وتركه للشمس أيامًا، وكان الشيخ قد خاط جلبابًا جديدًا، أخرجه من الصُرّة، ووضعه على كتفه، وهو سائر.

بعد الخطوة الأولى، أراد عطية أن يعرج على بيته، ويلقي نظرة أخيرة، ما زالت بعض دنياه القديمة عالقة بالجسد، لكنه تغاضى عن حنينه، لمّا سار شيخه بعض الخطوات، كان الشيخ قد اتخذ العود الأفرنجي عكازًا، من الخطوة الأولى والشيخ يقيس بالعكاز الأرض التي خرج منها، وظل هكذا مدة، هل يقيس المسافة من بداية داره حتى مدخل البلد؟ لا الشيخ يُصرّح، ولا عطية يسأل، كل ما يود فعله أن يلقي نظرة أخيرة، أو يضربه الشيخ، هكذا تعلّم الإشارة، ثم تخلّف خطوات قليلة عن شيخه.

على مدخل البلد، وبعد أن سطعت الشمس بنورها، التفت الشيخ، وألقى نظرة حانية على الناس والبهائم، والغيطان، وسمع عطية صرخة مكتومة: آه. مضى الشيخ بعدما مسح دمعه، ثم صارت المشية هرولة، وحين يحين الليل، يكونان تحت شجرة وحيدة، ولا بد أن تكون وحيدة، وحين يلفّهما الجوع تكون فروع الشجر الأخضر، أو الحشائش طعامهما، ولمّا تكون الأرض جرداء تكون السحالي، والفئران طعامهما، كان الشيخ يبكي وهو يأكلها، هي نفس مخلوقة، تعيش على قُدرة الخالق، وتشهد به، بعد أيام وشهور.. سأل عطية:

- على فين يا شيخي؟!

- حيث أراد الله.

ثم احتواه الصمت الجميل، والمبجل.

توقف الزمن منذ مدة، لحظة الوصول المزعومة هي بداية التأريخ، يمكن ساعتها تحديد الوقت، ومعرفة مواسم الحصاد. الزمن أيضًا شيء زائد يستخدمه البشر بتطرف، لكن الشيخ وعطية يمشيان بلا زمن. الشيخ وعطية يمشيان بخطو واثق في الخالق والمشيئة. يشرب جسداهما من ماء الله، ويأكل من أرضه، ويتفاعلان بتلقائية مع الريح، والمطر، والحر، والبرد، ولا أحد يستطيع أن يحمي مخلوقات من مخلوقات الله الأخرى الثابتة، والمتغيرة:غير الله!

ملّتْ الأرجل خطواتها المتعرجة بين الشمال مرة، وبين اليمين مرة أخرى، هل تعرف الأقدام طريقها من خطوها فقط؟ إرادة الوصول وحدها هي التي ستقول كلمتها، لكنها حتى الآن مضمرة، أو خافتة. رغم كل هذا كانت الخطوات تسابيح، وكانت الأيدي تستسلم للمشيئة، وكانت الأرض ملكوتًا حقيقيًا لا ينتهي، والمخلوقات تهلل باسم الله، والألوان تلهب العين بالحقيقة، والجمال، وتستصغر كل اللوحات العظيمة، والتغريد، والزقزقة أغنية وصل للوجود.. متناسقة، ومتناغمة، وكانت السماء تتغيّر بين لحظة وأخرى، مرة تهدي، ومرة تغدر، وكانت الأرض تحاول أن تُثني الأقدام المفرطحة بالتراجع، والعودة إلى البداية.

التفت الشيخ لعطية، الذي يعرج من قدمه الوارمة، أجلسه، وباسه على جبينه، ودلّك قدمه الوارمة، وأنامه على فخذه فترة من الزمن، ولمّا استفاق بهزة هينة، ارتمى في حضن الشيخ، كان لسان الشيخ يتحرك يمنة ويسرة، يحاول النطق، انتظر عطية كلمات الشيخ بشغف، تلعثم الشيخ في البداية، لكنه صحح كلماته، وقال:

- قريب نصل لأرضنا، أرض بكر، لم يصلها إنس ولا جان. مأمور.. مأمور.

وبكى الشيخ طويلاً هذه المرة.

بنقطة مجهولة على البحر الأحمر، صعد الشيخ جبلاً صغيرًا، ولمّا لمح الغزلان – على البعد – تمرح، قال:

- الإشارة.

وكانت سبابته في وجه الفراغ، لم ينظر عطية له، لكنه سَلَّم، ونام.

قام الشيخ وحده وقت الغروب، وحمل الصفيحة، والقُلّة، وكان العطش قد ملك رقبة عطية، وكان الكون في بهائه، ولون الماء يغشى البصر (سأموت من العطش) حدّث عطية نفسه بصوت لم يسمعه من قبل، ردد الصدى (ثق يا مخلوق في الخالق) خرّ عطية على الأرض، معفرًا جبهته، ومعاتبًا نفسه، عاد الشيخ حاملاً الماء، بعطش سني عمره، وتسليم أمره للشيخ، والخالق، شرب عطية كفايته.

- تستقيم الأمور قطرة.. قطرة.

- عطشان.

وأدرك عطية مراد شيخه، ولم يسأل عن مصدر الماء، ومن أين جاء، بعدها بيوم ارتدى الشيخ جلبابه الجديد، وأمر عطية بحمل الحجارة معه، في هدوم الشيخ القديمة يضعان فيها الحجارة، يمسك عطية طرفًا، والشيخ طرفًا، خلال أربعة أيام، بنى الشيخ مملكة الله، انتصبت مملكة الحقيقة، والسماء على أربع، هي الآن حقيقة.. كطفل يحبو على أربع، وغدًا يستقيم الأمر كما يستقيم الطفل على قدميه.

في اليوم الخامس أطلق عطية صرخة قوية من جوفه، وتيبست أعضاؤه، وراح في إغماءة، على بعد خطوات جلس الشيخ على ركبتيه، ناظرًا للأفق، وأشعة الغروب، يتمتم بأدعية خافتة.

وقبل أن يسدل الكون ستارته السوداء على الكون والمخلوقات، كان غزال صغير قد تخلّف عن عالمه، حتى وصل الشيخ، وهو ساجد، لحس الغزال وجه الشيخ، وعيون الشيخ تبرق بحزن، وفرح في آن واحد، لم يقو الغزال طويلاً على الوقوف، فاستكان جسده على فخذ الشيخ، كان الشيخ يفكر في علاجه مما أصابه إن كان به جرح، أو يعيده صباحًا لدربه (ماذا أفعل، وأجل الغزال قد دنا، وعطية على وشك الموت؟ هذا مخلوق، وهذا مخلوق، ما العمل يا ربي؟ وبأيهما أضحي؟) حدّث الشيخ نفسه، وبكى طويلاً، لكنه وجد الغزال على وشك أن يفارق الدنيا، فأخرج من جيبه مُدّية قديمة، وبحافتها ساعد الغزال على الرحيل، وانتشرت بقعة دم مباركة.. دون هاجس للقتل، أو منفعة، أو تفضيل، ثم نزل الشيخ الجبل، وأحضر أعشابًا صحراوية ناشفة، وعلى ركبتيه جلس أمام أعشابه، يستحضر في ذهنه، وملمس جسده نار الدنيا، لم يفكر، ولم يبك، لكن بجوفه نار الدنيا. نفخ بكل قوته.. كأن تحت الرماد نارًا، هكذا استسلم ليقينه، صعدت من جوفه حرارة، كأنها نار جهنم، لم ير نارًا، أو دخانًا، لكنه أغمي عليه، وقرب الفجر؛ كان لهب النار يلسع الأجساد الرطبة، ردد: الله، وردد الصدى، وتساءل في نفسه عن مصدر النار، لكنه سَلّم بأن الخالق دبر (ما شاء الله فعل) قال، وقطع مزقًا من لحم الغزال، ووضعها على نار الله.. كما سماها، ومشى خطوات إلى عطية، ومسح وجهه الشاحب من النوم، وقِلّة الأكل، وأكل عطية حتى شبع.

في اليوم السادس كانت مملكة الرب من دواب وطيور تظلل الجدران الأربعة، وعطية يحب – بشغف – الخبز. قال الشيخ:

- هناك.. عند البحر.. فيه بلد.. الناحية الثانية. هات اللي أنت عايزه.

وودعه على البركة، وأعطاه نقودًا لم يرها عطية مطلقًا في حياته، أمام البحر، وقف عطية صامتًا (ماذا فعل؟ ليس لي قدرة على هذا!) هكذا فكر، لكنه كان مدفوعًا.

- ببركة سيدي ببركة سيدي فتوح، عايز أروح هناك.

وفي لمح البصر وجد نفسه راكبًا الماء، لا يعرف كيف، لكنه أبصر المدينة بعينين زائغتين، اشترى ما يلزمه من الخبز، وقرر العودة.

- فين الخبز؟!

قال الشيخ، أدرك عطية أنه نسي الخبز بالضفة الأخرى، استأذن من شيخه، ومشى حتى البحر، وقال بصوت هامس لنفسه:

- ببركة.... عايز أروح هناك.

لكنه ظل مكانه على اليابسة، وأحس في نفسه بالخطيئة، وقال: (سامحني يا شيخي) واستعد إما للغرق، أو العودة بدون خبز، لكنه قرر أن يحاول مرة أخرى، وقال بكل جوارحه:

- ببركة سيدي فتوح.

عاد بالخبز. ولما وصل لشيخه، قبّل قدميه، وبكى.

- سامحني.

واختفى من شيخه، حتى دخل كهف النوم مرغمًا.

في اليوم السابع، ارتدى الشيخ جلبابه الجديد، تغبطه فرحة مبهمة، ووقت الظهيرة أطلق للهواء والريح كل حياته: ما حسّه، وما خبره، وما جرّبه، وأودع معرفته للمكان، ولطخ الجدران الأربعة – مملكة الله – بأنفاسه وبصماته، وملأ المريد جوارحه وحواسه بصوته المُنغّم الواضح، وفطن لما يريد الشيخ، واستقبل الأمر بتسليم مطلق، كان المريد مهيئًا للسماع بشغف، وأحس بطمأنينة لم يعهدها من قبل، وعقله مثل صفحة بيضاء.. كطفل شغوف، وكانت أعضاء المريد قد حولت نفسها لأذن كبيرة، والطيور والدواب قد حوّمتْ على لحم الغزال الباقي، كان المريد عطية يود الدفاع عن قوت يومه، وهمّ بالقيام، أمره الشيخ بالجلوس قبالته.

- يا مريد.. لا تفكر في بطنك.

- يا مريد.. الله يا شيخي! هذه أول مرة تناديه بها، ما الأمر يا شيخي؟ هل هذا هو الوصل؟ دام وصلك يا شيخي، أنا الآن في مقام الرضا الكامل، لكنني أحس أن شيئًا سيحدث لي، هل يحق لي الكلام مباشرة معك دون إشارة؟!

- يا مريد ما زلت صغيرًا، نسيت يا مريد ما تعلمت.

- عذرًا يا شيخي! فإني أحس أني ملكت الدنيا بأسرها، لقد رجعت – يا شيخي – حياتي السابقة أكثر إشراقًا، وأحس، أعرف يا شيخي أنه يجب التخلي عن كل شيء حتى الإحساس، لكن ما حيلتي الآن. هل تسمعني يا شيخي؟

- يا مريد، تخلّ حتى عني.

- لا يجب أن تقول هذا يا شيخي.

هذا ما حدّث به المريد نفسه، أو كان يفكر فيه، وكان يود أن يصارح شيخه، لكنه استفاق، لقد كان الشيخ معه، حتى في أفكاره.

حمل الشيخ الصفيحة، وهبط، ومشى بتؤدة، وفي لمح البصر، اختفى عن عين مريده، والطيور، والدواب تركت مملكة الرب، ورفرفت الطيور خلف سيدها، وظللته.

عاد الشيخ حاملاً الماء، نظر للشمس القريبة، ولم يحتمل أشعتها، فوضع يديه حتى جبهته، يحجب بعض ضيائها.

- انظر يا مريد للشمس مدة ساعة.

- ولا مخلوق يستطيع يا شيخي!

ابتسم، وربت على كتفه مريده.

- صدقت، هكذا نور المصطفى شديد، وإذا أردت الرؤية حقًا: عليك بالكفين.

حمل الشيخ مريده تحت إبطه، وزرع مملكة الرب بخطوات واثقة، وقال:

- لا يتعلم الطفل وحده، صح؟!

- أبوه، أو أمه، أو الناس يُعلّمونه.

- أنا الكفان، والأب، والأم، والناس.. يا ابن الطريق.

وصمت طويلاً، ثم قام، وهبط الجبل، عاد الشيخ حاملاً أعشابًا صحراوية ناشفة، ثم تمتم بأدعية، وجلس على ركبتيه.

مشى المريد خطوات، وشرب من القُلّة. وحين عاد وجد غزالاً يلحس وجه الشيخ، عجب المريد لأمر الغزلان، التي تأتي طواعية، لم يقو الغزال طويلاً على الوقوف، فاستكان جسده المتعب على فخذ الشيخ، لمعت مُدّية الشيخ، وانتشرت بقعة دم مباركة، سلخه الشيخ، وأخرج أحشاءه، ورماها للطيور، وأتى بعكازه، وأدخله من رقبة الغزال، حتى مؤخرته، ثم جلس الشيخ أمام راكية العشب، واستحضر من جوفه نار جهنم، ونفخ بكل قوته.. كأن تحت الرماد نارًا. لم ير نارًا، أو دخانًا، لكنه أغمي عليه، فكر المريد في أمر النار بقوة، وحمل حزمة ناشفة من العشب، وجرّب طريقة الشيخ، ونفخ بكل عزمه، النار لم تعلن عن نفسها، فأيقن في نفسه أن الشيخ مسكون بالجان، أو مخاوٍ، فارتعدت مفاصله.

❊ ❊ ❊

انتفض صبحي سعيد فجأة، ورمى هواجسه في وجه الغرفة، وخبط كفًا بكف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- احترم نفسك، وبلاش غلط.
- الغلط هو اللي إنتوا فيه.
- أعصابك.. أعصابك!
- البرج اللي فاضل.. خلاص.
- صلوا على النبي يا جماعة.

- عليه الصلاة والسلام.

ردد الجميع، ونظروا للأستاذ إبراهيم القصبي، الذي أمسك بيد صبحي سعيد.

- اقعد بس يا صاحبي، وقول اللي في نفسك.

ونظر لإسماعيل الديب، الذي بدوره نظره للجميع، قال صبحي:

- العلم الحديث أثبت.....

- ملعون أبو العلم!

لكن صبحي أكمل كلامه:

- وده كلام لا يحتمل الشك، النار اكتشفها الإنسان من خلال الاحتكاك.

- قصدك: تحك زلطتين؛ تطلع الشرارة، وبعدين تبقى نار، طيب! يا إسماعيل.. هات زلطتين، وخلي الأستاذ يولع لنا القوالح اللي في المنقد.

هرول إسماعيل الديب، عاد، ووضع الزلطتين أمام صبحي سعيد، وابتسم، وغمز بعينيه الضيقتين لأصحابه، تحيّر صبحي سعيد، ورغب في ترك المكان، نظر للزلطتين، وصمت (الغضب يعميك يا صبحي! ما عهدت نفسك هكذا، كن كما ربيت نفسك، أنت مؤمن بالتعدد والاختلاف، أنت الآن لا تختلف عنهم في شيء، أتريد أن يكونوا على أرضيتك؟! هم لم يدعوك لأرضيتهم، ولن يدعوك. أنت تسيء لنفسك وللعلم)

- ساكت ليه يا أستاذ صبحي؟!

أفاق من شروده، وأمسك الزلطتين، ورماهما.

- ده علماني يا إخوان!

- العلمانية مش عار، ولا كُفر.

- أُمّال إيه يا خفيف؟!

- من غير تريقة! أنا عايز أفهم.

- بص يا عم صبحي.. العبد الرباني بيقول للشيء كن، فيكون.

- حتى النار والجنة فينا.

- يا عم كمّل.. كمّل الحكاية.

قال الشيخ للمريد عطية:

- أذّن يا مريد في الكائنات.

أذّن المريد عطية لأول مرة. وكان الصدى يردد: الله أكبر، وخشعت الكائنات لكلمة: الله، وأمَّ الشيخ المريد، وقرأ ما تيسر له، ونغّم صوته الأجش، ورشح جسده بالعرق، ونضبت عيناه من الدموع، وفاضت الصلاة بهالة من نور خفي عليهما، وختم الشيخ جلسته بدعاء طاهر لم يسمعه المريد من قبل، وبسجود طويل، وعفر جبهته المتلألئة بتراب المكان، بعدها قام حاملاً مزق الغزال، وسوى اللحم على نار الله، وأكل بنهم، والمريد صامت يخشى الاقتراب، قرّبه الشيخ بإشارة، وضمّه إلى صدره، فاستكان، وتهللت سريرته، وأكل بنهم وفرح، بعدها نام المريد حتى العصر.

كان المريد نائمًا بعمق؛ وصوت شخيره يُقلّب الشيخ على جنبيه، وكان الشيخ يحاول إغماض عينيه، اللتين دائمًا ما تصطدمان بالجدران الأربعة التي بناها، لكنها – العين – تسرح بعيدًا جدًا مع السماء، التي تبهره، ولما لم ينم الشيخ جيدًا، نفض عن نفسه صورًا عديدة، تثقل حياته، ولفّ حول مملكة الرب، ماسكًا ماء عينيه، التي بللت هدومه، ومحاولاً إسكات القلب، الذي ينبض من الحب، أو الكرامة، أو الاندهاش، وأشياء أخرى لا يعرفها. وكانت جوارحه تساعد العينين، والقلب بارتعاشات متتالية، فلم يقو على الوقوف طويلاً أمام مملكة الرب، واستند إلى الجدار الذي أمامه، ثم التصق بالأرض، التي لم يعرفها، ولم يسكنها قط، كانت أشعة الغروب تسحبه رويدًا.. رويدًا نحو الظلمة، التي بدأت تخيفه، وأحس أن روحه لم يستقر لها قرار، مثل جسده الذي يحمله مرغمًا، منذ متى وهو يحمله؟ هو لم يحسن العدّ لنفسه، ولم يعرف منذ متى وهو حي؟ وأدركته لأول مرة الأسئلة، ولما رأى المريد يبتسم وهو نائم، أدرك أنه صورة مثل هؤلاء البشر الذين لم يختلط بهم، كانت الأسئلة – التي لم يسألها منذ أن فر من نفسه – تقلقه، وتزعجه.. مثل هذا الغروب، ساعتها فقط أدرك أنه لم يكن يومًا يتخيل نفسه بتلك الحالة، وبتلك الأرض البعيدة، مع مريد غائب عن كل شيء (آه.. المريد غائب. متناغم، ومتناسق مع الكون، آه.. يا محتاجًا لغيرك، اتخذتك

وسيلة لأصبح أنا، لكنك أفضل مني، والناس تعرفني بك، ذلك هو إثمي الأعظم، ساعدني يا مريد بما لديك!)

قام المريد من نومه نشيطًا، ومبتسمًا تلك الابتسامة التي تضيء الظلمة التي حلّتْ الآن، وكان قد فكر مليًا منذ فترة في قتل شيخه، فقد كان ما يوده أن يحس بالونس، لكن الشيخ لم يفعل غير تعذيب جسده، وإهانته (أنت وحيد) قال المريد لنفسه، وأحس أن شيخه عائق كبير، وأن فتوته في صالحه الآن، لكنه لم يفعل، وانصاع لفكرة التمرد على شيخه، عندما تواتيه الفرصة.. لكن الشيخ قد أحس ببواطن المريد، وابتعد عنه، وتركه لنفسه (لن أقتله) قال المريد لنفسه.

بعد أن نسي المريد ما كان يفكر فيه، وبعدما اطمأن له الشيخ، قال له الشيخ الذي هدّه التعب:

- الأسئلة موت، والإجابة حياة.

لأول مرة لم يسمع المريد كلام شيخه، وقام ينظر للأفق. يعبّ برئتيه هواءً صافيًا، وأدرك بعينيه كل النجوم، التي بدأت في الظهور، ولمح حول الجبل سربًا من الغزلان تتشاحن.

أذَّن المريد للصلاة، وانتظر شيخه، الذي رقد رغمًا عنه، صلى المريد وحده، والشيخ ينتفض، ولما انتهى المريد من صلاته، كان الشيخ يرتعش بشدة، إلى صدره قرّب المريد شيخه، وقال:

- أنت كما أردت.

ووضع المريد أذنه على فم شيخه، الذي تمتم بكلمات قليلة:

- احفر لي قبرًا.

وقام الشيخ بصعوبة، توضأ، وصلى وحده، والمريد عطية يصنع قبرًا للشيخ ببعض الحجارة، التي يضعها فوق بعضها البعض، ولما انتهى المريد، كان الفجر. والشيخ مستكين في نومه، ولأول مرة يوقظ المريد شيخه بهزة عنيفة، ولما أحس الشيخ بوجود المريد عطية، قرّبه إلى فمه، وقال:

- أنا ميّت.

❊ ❊ ❊

لما سمع الذاكرون موت شيخهم فتوح، انتفضوا جميعًا من نومهم، وانتحبوا، ووضعوا أياديهم على فم "محسن الساعاتي"، وكانت الحكاية لم تصل بعد إلى نهايتها، وظلوا معها مدة يومين وليلة لم يبرحوا الغرفة المبقعة، والباهتة اللون، دائمًا يسمعون حكاية شيخهم مسلسلة، وعلى فترات طويلة، ولم يصلوا أبدًا إلى موته منذ دخولهم حزب الشيخ.

لما أزاح "محسن الساعاتي" أياديهم بصعوبة قال:

- إيه الحكاية؟!

- الشيخ حي.

قال الجميع، نظر "محسن" إليهم جميعًا، ورد وهو منكس الرأس، وبصوت هامس:

- الشيخ حي.

ساعتها أكملوا نومهم بارتياح، وأكمل "محسن" الحكاية لـ"صبحي سعيد" المستيقظ.

أوصى الشيخ المريد عطية، أن يُكرم من سيأتي اليوم ليقرأ عليه الشهادة، ولما انقشع آخر خيط من الظلمة، كان رجلاً مُلثمًا، واقفًا على رأس المريد، أحس المريد بشيء غامض، وسأل نفسه: (كيف أتى؟ وكيف عرف هذا المكان؟) ولما أدركه الخوف، وفي غفلة من الرجل؛ نزع اللثام عن الرجل:

- شيخي!

قال المريد، وهرول هابطًا الجبل، وظل سائحًا مدة يومين في إجابة سؤاله (هل يستطيع إنسان أن يغسّل نفسه، ويدفن نفسه؟ هذا الشيخ لا أعرفه، ولا أفهمه) وبعد عودته، وبعد أن نثر الخوف في الخلاء الصامت البكر، جلس أمام جثة الشيخ، ولم يفعل المريد أي شيء.. غير قراءة الشهادة، وراح يلتهم بشغف ما حوله، وأدرك أنه لا يستطيع الرجوع وحده للناس، فابتسم في وجه القمر. وأحس براحة، وحدّث نفسه: (أنت وحيد يا عطية بما يكفي) وضحك ضحكة صافية، عندما أدرك اسمه بين شفتيه، وأحس أنه مثل الأرض البكر، فانتشى، وفرد ذراعيه للكون الواسع، وقال:

- سلامٌ على نفسٍ لا تُصارع أحدًا.

لكنه أكمل بعدما لمس الجدران الأربعة – مملكة الرب – وقال:

- يا عطية، تعيش وحدك، وتموت وحدك.

٥

يقول الراوي: قبل رحيله بقليل، وطئتْ قدمه بيوت البلد بيتًا.. بيتًا، وتعرّتْ من أشيائها، وقد تناثرتْ.. قبلي البلد، وبحري البلد، تستحي – البيوت – من قدومه المباغت، وكل ما فيها تحت قدميه، وأصابعه، العيال – فقط – لهم حرية التعلق بثيابه المتسخة، وعنقه الطويل. يركبونه فرحين، ويضربونه بجريد، وعصا. هو بين فرحتهم، وتوجعه، هو الكل وهم جزء منه.. بل هو صورة كل شيء الآن.

تقول الراوية: كانت بنت نعيمة الطوخي أجمل بنات الدلجمون، قبل زفافها بأيام ثلاثة، وقف فتوح أمام البيت، ووقفتْ "نعيمة" أمامه بجلبابها التحتاني، الماضى صورة حية، والرغبة لم تمتْ، تذكّر كل منهما حكايته مع الآخر، هي وقفة أخيرة ضد الزمن، قَبّلته بملء فمها، وقَبّلها أمام البنت الصغيرة، ورشفتْ "نعيمة" من ترياقه، هي قُبّلة الموت والحياة، قُبّلة الرغبة الأولى، والرغبة الأخيرة، لماذا وهو يُقّبل "نعيمة" تذكّر أن "زكية" وهمٌ؟!، لماذا هذه الكذبة طيلة هذا الزمن؟!

انزعجتْ البنت الصغيرة.. فجذبها، والتحفتْ بحضنه، ولمس شفتيها بشفتيه الغليظتين، كانت قُبلته هى القُبلة الأولى للبنت الصغيرة، دارتْ على بيوت البلد:

- هو لي، وأنا له.. هو لي، وأنا له.

والناس تتعجب، وتبتسم للبنت الجميلة، وبعد أن شاع خبرها مع "فتوح" أجبرها أبوها على الولوج في تابوت الثياب الأبيض.. المطرز لأول عريس يطلبها، وهي تقيس فستان الزفاف، هرولتْ حتى وقف أمام بيت عريسها. نادتْ عليه فخرج، وأهل بيته، خلعتْ ثوب زفافها، وتعرّتْ تمامًا أمام الخلق، ولم يستطع أحد أن يوقفها، أو ينظر إليها وهي عارية، الوحيد الذي كان ينظرها وهو مبتسم.. "فتوح".

يقول الرواة: في أواخر أيامه كانت الكلاب – كل الكلاب – تعلن عن وجوده، نباحها من غضبه، كثير من الكلاب تتقدمه، وكثير خلفه، وكلاب قليلة ناحية يساره، وناحية يمينه، وفي كثير من الأحيان تدخل معه البيوت – رغمًا عن أهلها – تأكل معه، ومن يده، وهو مبتسم. يتمازج لعابه ولعابها في صحن البيوت، وكانت بعض القطط تركب فوق كتفيه، وتهزّ أذيالها الناصعة البياض للكلاب، ولعين كل البشر. وقد أطلق عليه بعض الناس "أبو كلبة"، والبعض الآخر "أبو هرّة".

يقول الراوي: فجأة أجده بيني وبين ابني الوحيد.. الممسك بمعصمي بعنف، والغضب – ساعتها – يتوارى سريعًا، ويحل محله ضحكة مطولة.. ملؤها الرضا، والسماء، والأرض، وفجأة أجده بحضن زوجتي، فتصعد فرحتي ونشوتي درج القوة، ويفور من جسدي حليب، يغزو الكون الأسود، مطلقًا لم أغضب منه، فقط كان غضبي منه: أنه لم يلمسني قط.

تقول نعيمة الطوخي: البداية والنهاية وقف عليه، وأنا بين وجع بعاده، ووجع قربه.

يقول الرواة: بكاؤه شجن متواصل، ودموعه ارتواء لحزن الجسد.. أي جسد. وقدمه – عارية – سعي دائم على أرضه هو. عيناه لعلها ذاكرة الأشياء، وحقيقة الصور.

تقول نعيمة الطوخي: كنتُ – فقط – أود أن أسأله، لماذا لم يتمسك بي، ويكافح من أجلي؟! هل كانت أمي أقوى من رغبته؟! قبل اختفائه جاملني بقُبلته الوحيدة، وفتح باب أسئلتي، التي دفنتها في حضن زوجي، الأسئلة لا تموت بدفنها مع آخر، ما دام السؤال معلّقًا، أعترف لكم: هو لي كل الأسئلة، وكل الأجوبة، وكنتُ كلما رأيته، أطوّقه بحضني سرًّا، نعم، امرأة.. امرأة كافحتْ طيلة هذه السنين، وغمستْ جسدها – مرغمة – في حضن رجلها، وأنجبتْ منه أجمل بنات البلد.. لكنه – فتوح – يقين الجسد، وزمنه، وماؤه، هذا ما أدركه، وأحسّه.

يقول ضباش الصياد: أدركتُ نفسي على آهة، ولبستني قشعريرة، فركتُ عيني – الزائغة – على صحو فقير، ونوم غنى، كانت الآهة قوية وغامضة مثل صاحبها. ارتجّ لها الكون، وشجر الغيطان، وقارب صيدي، حتى السمك شارك بقفزة عالية في الهواء، ولونه الفضي يتألق في ليل بدأ يكشح هدومه السوداء رويدًا..رويدًا، احتلتني الآهة، وهزتْ جوانحي، وكنتُ قلقًا على رزقي،

الذى بات قليلاً هذه الأيام، وكنتُ ممدّدًا فوق قاربي.. الراسي عند التقاء ترعة الباجورية والهويس.

ربطتُ القارب، ونزلتُ أرضه لأول مرة، ما الذي دفعني إلى اتجاه الشيخ؟! لست أعرف بالضبط! فقط شدتني نغمة الآهة، التي باتتْ ضعيفة الآن، كان متدثرًا بالسماء، مغمض العينين، تحمله أرض رطبة، وبين البوص، والحشائش حيوات الليل كله، والفئران، والسحالي تحوطه، وهي ساكنة، وبعض الذئاب قريبة من رأسه، لمّا اقتربتُ أكثر وأكثر، اتضح لى أنه يتوجع فعلاً، وشفتاه مضمومتان. أعضاؤه هي التي تنطق الآهة.

في لحظة – مسروقة – تلاشى ما قبلها، وما بعدها.. رغم أنني لا أعرف طولها، أو قصرها، أدركتُ إشارته لي بالابتعاد، جررتُ نفسي، وأقمتُ جسدي فوق قاربي، وبجواري كانت آهاته تسكن قاع ترعة الباجورية، والهويس، وجوفي، وكانت بيوت البلد كحوت سيدنا يونس.. وجع، وظلمة، ودهشة، وجوارح تستجيب مرغمة لنداء غامض، تلك اللحظة لن تتكرر، نظر كل فرد إلى جاره – الكل ينظر للكل – ربما تكون الآهة خارجة منه، كما بُعثتْ ماتتْ الأجساد موجوعة، وقابضة على آهة، كانت لذة، وألمًا.

هل كانت آهة الشيخ فتوح "آهة الكل"، أم أن آهات الجميع قد استجابتْ، ولبت النداء – كالكلاب التي تلبي نداء صاحبها البعيد – بشكل أو بآخر لآهاته الصادقة؟ أم أن هناك شيئًا آخر غامضًا؟!

تعلّق نظري بمكان الشيخ ثلاثة أيام، ثم غفوتُ اليوم الرابع، وفي اليوم الخامس، أو السابع، وجدتُ "حامد" يلمّ عظام بهائم، وحمير، وكلاب، ويرصها بيديه، ويحاول أن يعمل منها هيئة جسد إنساني، والأفواه تلوك: للشيخ منامة.. للشيخ منامة.

أين أنت أيها الشيخ الطيب؟! هل وجودك في حياتنا، أم في العدم؟ أم ما زلت متأرجحًا بين الموت والحياة؟! هل طابتْ لك حقيقة البرزخ؟! لا أحد يسألني، ولا أجيب على أحد!

ويجزم الرواة: كل الأشياء له، وهو ليس له شيء، هو زمام نفسه، والمصائر صنع مُخيلته، هو سؤال دائم، وإجابة مبهمة.

أخيراً..

حَمل "حامد" غيبوبته، وتعكّز على ابنه الذي تجاوز الخمسين عامًا، وعلى الشاعر الصعلوك "مطاوع"، وعاد إلى الدلجمون.

على سريره حَمَل "حامد" جسده. وفي قلبه أمنيات كثيرة يود تحقيقها، كانت إفاقته – دقائق معدودة – تحمل معنى الغياب، وحضوره الفعلي قد انقطع، وفي المُخيلة صور متداخلة مشوشة، وصورة "فتوح" واضحة.. تحتل أكبر مساحة.

لم يطلق "حامد" آهة توجع.. بل استسلم أخيرًا لنهاية محتومة، بسبب تأريخ الجسد الذي هلك.

في إفاقته الأخيرة، كانت رائحة المسك والعنبر تحتل وعيه، وأنفه، والغرفة. اعتدل حامد قليلاً، وصوّب النظر المعلول للعتمة. كان الرجل الواقف تحت رأسه ينز الحليب من وجهه، وفى جبينه زبيبة واضحة وكبيرة. يخبط الأرض بعصا – غليظة – من الأبنوس، وتطوّق رقبته مسبحة طويلة، تضيء عتمة الغرفة، وتتخلل أصابعه الطويلة شعر اللحية الأبيض.. الطويل. وشعر رأسه الأبيض يتدلى على قفاه وصدره، يرتدي جلبابًا أبيض، وينتعل حذاءً أسمر، وعلى كتفه شالٌ أخضر، ظنّه "حامد" ملك الموت، فقرأ الشهادة على نفسه.

- حرام عليك دفنتني وأنا حي!

عرف الصوت، وأدرك طبقاته، ساعتها؛ صرخ:

- فتوح.

لكن صورة "فتوح" اختفتْ، ولم يرها ثانية، وقد فتح "حامد" على نفسه أبوابًا مغلقةً، وليس لها رتاج. هرول "مطاوع" إلى صاحبه "حامد"، ثم غاب "حامد" غيبة طويلة.

تمت

ممدوح عبد الستار

صدر له:

السمان يستريح في النهر- مجموعة قصصية عام ١٩٨٩

ظلال – مجموعة قصصية عام ١٩٩٦

للعشق الحرام- مجموعة قصصية عام ٢٠١٣

حصل على العديد من الجوائز منها:

جائزة سعاد الصباح علي مستوى الوطن العربي في القصة القصيرة عام ١٩٨٨

جائزة سعاد الصباح علي مستوى الوطن العربي عام ١٩٨٩ في الرواية

جائزة مجلة الفرسان الصادرة من فرنسا عام ١٩٩٠ في القصة القصيرة علي مستوي الوطن العربي.

جائزة محمد تيمور المسرحية عام ١٩٩٥ علي مستوي الوطن العربي

جائزة جريدة أخبار الأدب القاهرية علي مستوي الوطن العربي في القصة القصيرة ،

جائزة الثقافة الجماهيرية علي مستوى القطر المصري عام ١٩٩٦ في الرواية،

جائزة الثقافة الجماهيرية علي مستور القطر المصري في القصة القصيرة عام ١٩٩٦

جائزة مجلة الصدى الإماراتية علي مستوي الوطن العربي في القصة القصيرة الدورة الرابعة عام٢٠٠٥-٢٠٠٦

جائزة كتاب اليوم الأدبية الدورة الأولي عام ٢٠٠٥-٢٠٠٦ في القصة القصيرة

جائزة إحسان عبد القدوس في الرواية عام ٢٠٠٦

جائزة مجلة دبي الثقافية في القصة القصيرة-الدورة الخامسة ٢٠٠٦\٢٠٠٧

جائزة نادي القصة بالقاهرة في الرواية لعام ٢٠٠٧ في الرواية

* * *

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية
ج . م . ع

www.Idafabooks.com